المصابيح الزرق

محمـــود تيمـــور

المصابيح الزرق

مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

المصابيح الزرق

محمود تيمور

الغلاف والإشراف الفنى:

الفنان: محمود الهندى

المشرف العام:

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلهفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

لمحــة

فى «مصرَ» وطنِنا الأعزّ ، كانت « المصابيح الزُّرقُ » – يوماً ما – رمزاً لعهدٍ ساد فيه ظُلم وظَلام ، هو عهدُ الاحتلال !...

وكم فى الحياة البشريةِ من «مصابيحَ زرقٍ» يضل فى ظُلُماتها العقل ، وتَزِل فى ظلالها النفس !...

وكما انكشفتِ « المصابيحُ الزرقُ » فى عهدِ الاحتلالِ عن نورِ حرية واستقلال ، يتجلى فى الشخصيةِ الإنسانية ، أحيانا ، خلال زُرْقة الملاَبسات ، وعَتْمة الأحداث ، فجرٌ مشرقٌ ، ونور بهيج ...

فمن الشر يُولَدُ خير !...

ومن الرِّجسِ ينبعُ طُهْر !...

ولربما سطع النور من جَمْر !...

وذلك سرُّ « المصـــابيح الزرق » ... إن

كان لهـا سر !...

محمود تيمور

١

القصة التى أَرْويها لك الساعة ، وقعت

أحداثُها في صيف عام ١٩١٦ م.

أُحِس ابتسامةً تعلو فمك ، وهَمسةً تختلِج بها شفتاك .

يالَه من تاريخ طال عليه الأمَد !...

نعم ... ما أَبعده من عهد ، مضت عليه أَربعون من السنين أو تزيد !... بيْد أَن صورتَه تتراءى لعينَيَّ اللحظة ؛ كأنها وقعت أمسِ الدابر !...

كان للأَحداث التى أرويها لك فى هذه القصة ، أثر عميق فى قلبى ، لا يمحوه كرُّ الأيام !...

الإسكندرية ... يولية سنة ١٩١٦ م

الحرب العظمى – أعنى الحرب العالمية الأولى – قارب عمرُها السنتين . وليس فى مُستَطاع أحد أن يتكهن بنهايتها ، ولا أن يدرىَ مَن يُكتب له الغَلَبةُ ، ومن يكون المهزوم .

الملل قد تسلل إلى القلوب ، والثغر مكتظ بالمُصيِّفين من كل فَجٍّ ؛ إذ حِيل بينهم وبين الترحُّل إلى المصايف الأجنبية فى الشرق ، أو في الغرب !...

وحرب الغواصات فى البحر بالغةٌ الذِّروة ؛ فما من يوم يتبلَّج صبحُه ، إلا حملت إلينا فيه الصحفُ أنباءَ البواخر الغرقَى .

هذا فضلا عن الفيض الزاخر من جنودٍ تابعين لجيشِ الاحتلال الإنجليزى ، تضيق به منافذُ الإسكندرية يَمنة ويَسرة . كانوا كمَثَلِ أرجالِ الجراد المنقضِّ ، مختلفةً ألوانهم وصورهم ، وإن جَمَعَتهم شارةٌ واحدة ، وانضوَوْا تحت عَلَم

واحد ... نراهم حين نُصبح وحين نُمسى، يدافعوننا بالمناكب في الطرق، أنوفهم شوامخ، وعلى سيمائهم عنجهيّة واستفزاز، وفى المخازن التّجارية لا يدَعون لنا مانشتريه حتى الفُضالات، وفى المشارب والمطاعم والأندية العامة يزْحَموننا ويتبوءون المقاعد المختارة فى صخَب وهياج .

لبثنا نُحِس كأن شيئا ثقيلا جاثما عَلَى صدرنا، تحتبِس له أنفاسُنا . نشعر بوطْأته، جماعات كنا أو فُرادى... كان هذا «الشئ» يتمثل فى مظهرَيْن؛ حمايةٍ فرضتْها السلطةُ المحتلَّة، ونفوذٍ أجنبى طاغٍ تذِل له أعناقُنا أيَّما ذِلَّة.

كان الجو الذى نحيا فيه يَضِجُّ صاخِباً فى مختلف الأرجاء، بيْد أننا — نحن المواطنين — كنا عَلَى الرّغم من الضجة والصخَب نحس الوحشةَ والإقفار!... كنا غرباء فى وطننا... المحتل هو السيد الآمر، والدخيل هو المطمئن الآنس!...

وما نحن — أَهلَ البلد — إلا منفذون لما يُراد بنا طوْعا أَو على كُره !...

إن أَردتَ أَن تكون مرموقا بنظرة إكبار وتبجيل فاجعل عَلَى رأْسك «قبّعة» ؛ وَعَوِّج لسانَك بغيرِ العربية !...

مازلتُ أذكرُ — حتى يومى هذا — جملةً كان يلُوكها ماسحُ الأحذية ، ذلك الغلامُ الذى ألفناه يتردد عَلَى المشرَب ونحن فيه جلوس . كان يقول ساخِرَ اللهجةِ مريرَ الابتسامة:

أتمنى أَن أكون « خواجة » مرةً واحدة فى حياتى ، ثم لا أبالى أن أعيشَ أو أن أموت !...

٢

كنا زُملة من الشباب، ليس فينا من لم يُجاوزِ العشرين، تخيَّرنا لجلوسنا مشرَبا ينظر إلى البحر ، حِيالَ الميناء الشرقي ، فيه نقضى بعض الأصائلِ والأُمسيَّات ....

نجتمع فى ركن خاص عَلَى الرصيف ، نخوض أشتاتَ الأحاديث الوطنيـة فى تحمُّس وحيوية ، ولكن عَلَى حذَر واحـتراس ، فالصوت مهموس ، والتعبير فيه إبهـام وغموض !...

وعلى الرغم من وطأة الرّقابة كان لنا نشاط وطنى محدود، فكنا نعملُ عَلَى مناهَضَة الاحتلال ، وندعو إلى مقـاطَعَة البريطانيين ، فنلقَى عَنَتاً من دُعاة التردد والتخاذُل ، ومن

التُّجار ومَن إليهم ممن يَضيقون بهذه المقاطعـة ؛ حرصاً عَلَى المنَافع والأرزاق !... بيد أن هذا لم يكن يفتُّ في عضُدِنا ، أو يَثْنينا عن عزيمتنا ، فانبرينا نُتَابِعُ رسالتَنا الوطنية ، وإن كانت في مظهر بدائيٍّ ، غيرِ إيجابي .

وكان رفيقنا « سيد العتر » أكبرَنا سنا ، وأكثرَنا تجربة ، فأقمناه عميدا لنا ورائدا . وهو من أسرة محافِظةٍ شديدةِ التمسك بأهداب الدين ، متزوجٌ ذو أطفال ، يسترسل في أحاديثه متحمساً ذَلِقَ اللسان ، ويضمِّن كلامه أبياتاً من الشعر ، وشذوراً من نوابغ الكلم .

حقاً كنا نُعجَب بفصاحته ونقدر مايبدو من حماسته ، ولكننا لم نكن نعيره التفاتاً ، حين يستغرق في مواعظه وإرشاداته ، فنرمي بأنظارنا عرض البحر ، وقد شغلتنا أفكار وتأملات ، ونحن من الظُّلمة في غَمرة شاملة ، فلم يكنْ ينير

الشاطئ إلا بعضُ مصابيحَ تكسو زجاجها زرقة ، درءا لأخطار الغواصات ، وما إليها من طلائع البحر .

في ضوء هذه المصابيح الزُّرق القاتمة ، كنا نعقد جلساتِنا نستقبل أنسام العشية النديَّة بأنفاس البحر ، نلقى بآذاننا في إعجاب يشوبه ملل إلى صديقنا « السيد العتر » ، وهو يوالى نصائحَه وعظاتِه ، مردداً :

أصلحوا أنفسكم تصلُحْ لكم دنياكم. دينكم دِعامة حياتكم؛ فحافظوا عليه واستهدُوه سواء السبيل .

ثم إذا هو يُنشِد قول الشاعر :

وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ
فمن العجز أن تموتَ جبانا

ويُتبعه قوله :

لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى
حتى يُراقَ على جوانبه الدَّمُ

وينخرِط صديقنا « السيد العتر » فى إنشاده ، ونحن فى ضجَر وركود ، لا يبعث فينا اليقظة والحيـاة إلا أمرٌ واحد : ظهورُها .. نعم ، ظهورُها « هي » !...

كانت تبدو فى الطريق أَمامَ المشرَب تغمرُها الأضواء الزُّرقُ ، فتكسوهـا غِـلالةً من غموض وسحر وفتنـة ، وما تـكاد تبدو حتى تتقـافزَ نحوَها عيونـنـا ، وِيُطبقَ عَلَى الخطيب المُفَوَّه صمتٌ .

هيفاء ، فارعةُ العودِ ، يروعُنا منها مُلاءةٌ سوداء ، تجيد لفها حول جسَدِهـا الممشوقِ ، وكعبٌ عالٍ يزيدُ فى اتزانِ الخطْوِ وَرشـــاقةِ القدِّ . ونحن يومئذٍ لم نـكنْ نلمَح النساء الوطنياتِ سافراتٍ ، إلا فى النُّدرة ، كما تبدو صـاحبتُنا تلك سافرةَ الوجهِ ، تشع منها جاذبيةٌ أُنثَوِيَّةٌ طاغية .

تسير مرفوعةَ الهـامةِ ؛ لاتتلفتُ ... متهاديةَ المشيـة ؛ كأنها ظبيٌ يجوس متخطِّرا خِلالَ الشجر !...

نُحِس ابتسامةً أنيسةً يُشرق بها وجهُها الصبيح...
ابتسامةً تَخُص بها نفسَها ، فلا تَسخُو بها لِأحد .

« هى » من بنات الهوَى ؛ طَيْرِ الليل ، وإن كان مظهرُها لاينم عن تبذُّل ، فلم تكن تفُرِط فى التبرج ، وَلا تغلُو فى إظهار المفاتن .

كنا نراعيها بأعيننا حتى تبتلعُها أعماقُ العُتْمة على مَدِّ الطريق ، وتظَل أبصارنا تلاحقُ طيفَها الغاربَ فترةً من الوقت ... عندئذ يثوب إلينا وعْيُنا ، ويصافحُ آذاننا صوت رفيقِنا « العتر » ، وهو يقول فى توقُّر مُجتلَب :

هذا نُخش تجب محاربتُه ... قبل أن تُحارِبوا الإنجليزَ نظفوا بلادَكم من هذه المَقَاذِر !...

فتتصامّ عنه الأسماعُ كأنْ لم يقلْ من شيء ، وعضى برمُق عرض البحر ، وطيفُ « ذاتِ المُلاءة » يتخايلُ لأعيننا عن يمين وشمال !...

موعد محدودٌ من اليومِ تخطو فيه عَلَى أَرضِ تلك البُقعةِ، وإن لم تكن توالى الظهورَ كلَّ يوم . ولشدَّ ما كنت ، وأنا أجالسُ رِفاق ، أرقب مقدَمها نافدَ الصبر . فإذا فات موعدُها ، دون أن تلوح لبثت سائر وقتى ، وأنا أُحس اللهفةَ وحسْرةَ النفس !...

٣

كنتُ وحدى فى المشرَبِ ذاتَ عشيَّة ، إذ أبطأ الصَّحابُ ، ولبثتُ هنيهةً وعينى راصدةٌ لمَن يسلُكُ الطريق .

ولَمحتُ شبحَها فى الظُّلمةِ من بعيد ، وطفِقْتُ أرقُبُها وهى تستبين رويداً تحتَ الأضواءِ الزُّرق .

وجازتْ بى كنفحة من نسيم رخىٍّ ، يحمل بين طياته أريجَ الزهر . ورمقتنى بنظرة ساخنة من عينيها الناعستين ، وقد استنار وجهُهَا بابتسام أنيس .

وواصلت مسيرَها حتى كاد الظلام يُخفيها ، وأنا أُتبِعُها نظراتى ، أُحاول أن أُمزقَ من حولها غاشِيةَ الليل .

وألفيتُنى أنهض ، وقد سرتْ فى أوصالي نشوةٌ ، واستبدَّ

بى حنين

وقفوتُ أثرَها ...

وأدركتُها ...

وأحستْ بى ... بيد أنها لم تلتفت إلىّ ، وتابعت مسيرَها

عَلَى نحو ما كانت تفعل .

وحاذيتُها ، واستروحتُ شذاها .

وطالت بىَ الحيْرَة ، لا أدرى ما أقول !...

وراعنى سُخف موقفى ، فلعنتُ نفسى !...

وَسمعتُها تخافِت بقولها :

أين رفاقُك الليلة ؟...

— تأخروا ...

— ألا تخشَى أن يَفتقِدُوك ؟...

— لا أُبالى .

٤

أزجيتُ أياما كانت فيها المشـاعرُ المتضـاربة تتنـاوح في قلبي ، ولا تفتأُ تتناوح : رغبةٌ عارمة تدفع بي أن ألقاها، وإرادة صُلبة علىَّ أن أقاطعها وأن أنساها .

لم ألق الرفاق طوال هذه الأيام ، عَلَى مَضَضٍ ...

وأخيراً عِيل صبرى ، فعدتُ إلى مجلسى بينهم أعتذر عن انقطاعى عنهم بمكذوب المعاذير .

واندفعنا نتحدث ، وكان مدارُ حديثنا حربَ الغواصاتِ التى شنتها « ألمانيا » عَلَى أساطيلِ الحلفاء . وكنا جميعا نتشهّى أن تنتصر « ألمانيا » انتصاراً حاسما ، يقضى على بريطانيا وعلى أذنابها من الدُّوَلِ المحارِبة .

وتـكلم « السيد العتر » قائلا :

افهموا أيها الإخوان أن هزيمة الإنجليز لا تغير من وضعنا ، باعتبارنا دولة خاضعة للنفوذ الأجنبي . فإن البريطانيين ما يبـارحون ديارنا حتى تطالِعَنا ، على أعقـابهم ، خَوْذَات القيصر « وِلْهِلْم » ، ولن يتورعَ الألمـانُ عن أن يحلوا محلَّ الغاصـبين المرتحِلين ؛ فنحن بين غاصب يروح ، وغاصب يجيء !...

فأجاب «رأفت» ، وقد علا وجهه عبوسُ التشاؤم :

أمـكتوب على هذا البلد أن يظل محكوما بغير أهله ، مغلوبا على أمره ؟... هذا هو البلاء العظيم .

وقال «مأمون» فى صوته الأبح البغيض :

حال لاتطاق ... لقد يئسنا من الحياة ... إننا لنود أن ننسلخ من جنسيتنا ، و نتخذَ لنا جنسيةً أخرى ، أعزَّ وأكرمَ .

فثار به «السيد العتر» صائحا :

ألا تخجلُ من هذا القول ؟...

فأجابه « مأمون » فى هيْجةٍ وقد اختنق صوتُه :

أريد أن أَعيشَ مرفوع الرأس ... أريد أن أَحيا حياة الكرامة . فإذا لم تتوافر لى هذه الكرامةُ والعزة هنا ، التمستُها فى وطن غيرِ الوطن .

فقال « السيد العتر » متهدِّجَ الصوت :

أَنسيتَ ما قاله « مصطفى كامل » : «لو لم أكن مصريا لوددْتُ أن أكون مصريا» ؟...

فتصايحَ « مأمون » :

إنى لا أفهم هذه الفلسفة ياسيدى ... لقد شبعنا من مثل هذا الكلام الأَجْوَفِ .

فقلت وأنا أنظر فى عرض الطريق ، أحاول أن أتفقد شيئاً ضائعاً فى الظُّلمة الزرقاء :

مهما يكن من أمر فإننا نعُد اندحارَ البريطانيين فى هذه الحرب انتصاراً لنا على أَية حال ... إنه الخطوة الأولى فى سبيل التحرر .

فقال « مأمون » وهو يَرمى ببصره فى الفضاء :

نحن اليوم فى أسوإِ وضع يكون ، فكل تغيير يطرأ إنما هو خير ...

وتصيدتْ عيناى ظلَّها ، ظلَّ ذاتِ المُلاءة ينساب فى غَبْشَة الليل فملكنى صمت ، ولعب بقلبيَ الخفوق ... ولم يلبث الرّفاقُ أن شمِلهم سُكون ، فلم ينبِس أحدهم بلفظ ... واصطفَّتْ أنظارنا جميعاً لها ترقبُها ، وهى تسير كأنها طيفُ حُلم رفَّاف .

وأحسستُ كأنما تحييني بنظرتها ، وتُهدى إلىَّ بَسْمتها ... تخصنى بهما دون سواى ... وما إن غيبها الطريق حتى سمعت صديقنا « العتر » يهمهم :

إنكم لتهاجمون أعداء الوطن من الأجانب . وأرا كم غافلين عن أعدائنا من المواطنين ، هذه الزُّمرَةَ الخطِرة التي تحيا بين ظَهْرانيْنا، آمنةً وهى تنفث فيناَ السمومَ المُردِيَة !...

وسدَّد إلىّ النظر ، وكأنه اقتنص خفايا شعورى نحوها ، وَقال :

أَليسَ عندكَ ماتقوله ياسيد « فهيم » ؟...

فأَجبتُ وأنا فى أخيلةٍ شاردة :

أنت عَلَى حق « ياسيد عتر» ...

— أيَّ حقٍّ تَعنى ؟...

فقلت فى هينْمَةَ مسترخية :

ما قلتَه الساعة !...

— أَمخلصٌ أنت فى قولك هذا ؟...

فتثاءبتُ تثاؤبةً تقطَّع بينها جوابى :

مخلص جد الإخلاص !...

٥

تخلفتُ عن النَّدوةِ يومَيْن ...

وفى أُمسيَّة اليوم الثالث ، أُلفيتُنى ماثلا بباب الدار ، فى الحارة المُريبة المُعتِمة ، لا أنا مرتسم خُطَّة ، ولا أنا رام إلى هدَف .

أحسستُ بأنى لم يعد لى سلطان عَلَى نفسى ، وأن ثمةَ قوةً خفية غريبة هي التي تتولى تصريف أمرى .

وتناهتْ إلى سمعى تلك الأصواتُ المعربِدَة التى تصاحبها موسيقى مهوشة ، صادرة من الدار !...

وطالعتْنى ظلالٌ آدميةٌ تترنَّح في الطريق ...

وأخيراً لاحت لعينى ذاتُ المُلاءة المحبوكة ، والوجه

السافر ...

فلما بلغتُ مكانى عند باب الدار ؛ أخذت بذراعى فى صمت ، فماشيتُها لا أنبس ...

وارتقينْا الدرَج ...

وكانت الأصواتُ المعربِدة ، ذاتُ الموسيقى المهوشّةِ ، تتوضح وتشتد ، كلما أوغلتُ في الصعود ...

وكانت صاحبتى تضغَطُ ذراعى ، وتجتذِبُنى نحوها فى رفق ، فأَستجيب لها في شغَفٍ .

وَوَالينا الصعود حتى الطبقة الثالثة ، وهي عُليا طبقاتِ الدار .

وفتحتْ باب الشِّقة بمفتَاح معها .

واجتازَتْ بى ردهةَ الشِّقة ، وأَنا في شبه حُلم ...

هدوء مريح ، ومظهرٌ من النظافة والتنسيق تسكن

إليه النفس ، أما الجلبة الموسيقية وما إليها فلم تعد تبلغ أسماعنا إلا قليلا.

وَدخلت بى حجرة المَخدع فإذا النور الأزرق يغشاها ، إذ كانت نوافـذهاَ تنظر إلى البحر عَلَى بُعد ، حيث لا تأذَن السلطات بإطـــلاق الضوء الأبيض ، حِياطَةً للمـدينة من العدوان .

وطرحت الغانيةُ عنها المُلاءة فإذا هى فى ثوب شفيف هَفْهَاف ، عاريةً الصـــدر والمَنْـــكِبَيْن جميعاً . وَقالت في ابتسامة مَرِحة :

هذه الشقة بأسرها لي ، هى مسكنِيَ الخاص ، لايَشْرَكنى فيهاَ أحد ... أتُعجبك ؟...

— تعجبني ... ولـكنني بصاَحبتهاَ أَشدُّ إعجابا !...

فكـركرَتْ فى الضحك ، وهى تستـديرُ فى وقفتهاَ ، ثم وَاجهتْنى دَفْعة واحدة .



... وطرحت الغانية عنها الملاءة ، فإذا هى فى ثوب شفيف هفهاف ...

وتشابكتْ نظراتُنا ...

ومَثلْنا وقتاً صامتَيْن ...

عيناهـــــــا ...

يالهما من عينيْن فَريدتيْن !...

ليستا من تلك العيونِ السُّودِ ، أو العيونِ النُّجْل . تلك التى طالمَا تغنَّى بهاَ الشعراء !...

هماَ عينان ضيقتان لم أُميِّزْ لهما لوناً ظاهراً ، بيد أنهما كانتا مُفرطتين فى الجاذبيَّةِ ، يتمشى فيهما نُعاس وذُبول ، توحيان بالرُّؤَى والأحلام !...

وأَطَلْتُ التحديقَ إليهما ، أعُبُّ من فتنتهما ما وَسعنى أن أعُب ، ولا أزداد إلا هيَماَناً ولَوْعة !...

وتلقيت وجههـا بين راحتيَّ كلتيْهما ، وهبطتُ على شفتيها أعتصرُهما بين شفتيَّ اعتصاراً

٦

دأبتُ عَلَى أن أتخلَّفَ عن مجلس الرُّفقاء ، ويشتدّ بى التخلُّف ...

لقد تولهتُ بتلكَ الغانيةِ تولُّهاً ليس وراءه من مزيد ، فأقبلت عَلَى زيارتها تِباعاً ، ولم تكن طاقتِي الماليةُ تسمحُ لى بما تقتضيه هذه المجالات من مبسوط النفقات ، إلا أننى دبَّرت الأمر عَلَى وجوه ميسورة وغير ميسورة ، واتخذتُ وسائلَ أورثتنى ما أورثتْنى من ضَنْك ورَهَق . عَلَى أن تلك الأوقاتَ الممتعةَ الشهيةَ التى أقضيها فى خِدْر تلك الغانيةِ كانت تُلهينى عن متاعبي جميعاً .

اسمها «نواعم» ، فتاة حُلْوةُ الشمائل ، فيها عِزَّةُ نفس ،

متجافيةٌ عن مَسلَكَ الغوانى المحترفاتِ فى الابتذال والاستغلال، وأجمعُ ظني أنها تمُتُّ إلى مَنْبَت أصيل ، ومنشأ كريم .

لم تقع عيني عَلَى مصرى سِوَاىَ يطرُق بيتَها ذاك ؛ إذْ أن رُوَّادَها هم الضبـاطُ الإنجليز . ولا أكتُم أن مَرْأَى هؤلاء الضباط كان يملؤنى مضَضاً . ولكن ماذا فى طَوْقِى أن أفعل ؟... وهل يكونُ منى إلا أن أَرضَى بما أَرَى وإن كرهت ؟...

وأفضيتُ مرةً بذاتِ نفسى إلى « سيد العتر » وناشدتُه المعونةَ والنُّصْح ، فلم ألق منه وا أَسفاَ ، إلا استهانةً بشعورى وازدراءَ لِحُبى .

وشاعَتْ قِصتي بين الرِّفاق ، فراحوا يتنادَرُون بي، فى لهجة لذَّاعة ، وأنا أَغُض مرةً ، وأُجارِى مرة ، وأحاولُ مرات أن أصرفَ وجه الحديث .

وليلة استأذنتُ مبادِرا فى الانصرافِ ، فنهض معى «سيد العتر» دونَ أن أدعُوَه . وسآيرنى فى الطريق ، آخذاً

بساعِدِى .

ومضينا وقتاً صامتيْن ، ثم سمعتُه يقول فى نَبَراتٍ يتكلف فيها التحبُّب :

أين أنت ذاهب يا «فهيم» ؟...

فأجبتُه بمثل نَبَراته :

إلى دارى يا أخى !...

ـ لستَ فى قولك عَلَى صدق ... إنك ذاهبٌ إلى دارها .

فتعالَى صوتِى بِضحكة عابثةٍ أقول :

وماذا فى أن أفعل ؟!...

فقال فى رزَانة وجِد :

الطريق التي تسلكها محفوفةٌ بالمخاطر ...

فأجبتُه أحاكى رزانتَه وجِدَّه :

المَخَاطرُ جزء من حياتنا لا يتجزأ . فليس من الخـير أن نديمَ التفـكير فيها ، مبالغين فى الحَيْطة منها ؛ بل الخيرُ كلُّ الخير أن نؤثر الُجرأة والاقتحام ، لنغنَمَ أطايب المُتع ، لا ندَعُها تفلِت منا ، فِديةً للحذَر والاحتراس .

— إنَّ ما تحسَبُه غُنْمًا من أطايبِ المُتَع ليس إلا الخطيئةَ الـكُبري .

فوقفتُ خُطاىَ وواجهتُه بقولى :

ليس بخطيئة [illegible]

وأمسكتُ [illegible] قولى :

إنه الحب يا [illegible] ... الحبُّ الـكبير ... الحب العظيم ...

— بل الحبُّ الدَّنِس يا « فهيم » ... فلتـكنْ منه عَلَى حَذَر .

— هذا غلوٌّ في القول فأعفِني منه .

— بل هو نصيحة خالصة ، أبتَغى بها وجهَ الله .

— أنا في غُنْية عن خالص النصائح ...

— لستُ ادرى كيفَ يتأتَّى لشابٍّ مثلِك ينتمى إلى زُمرتنا الطيبة ، أن يسمحَ لنفسه بعَقد الصلة بينه وبين غانية ، تَبيع نفسَها للإنجليز ، وتعيشُ بما يسخُون به عليها من مال... أين مكانُ الوطنية من قلبك ؟...

فأرسلتُ ضحكةً سقيمةً مفتعلة وقلت :

وهل كنتَ ترضى عن علاقة أعقِدها بينى وبين غانية لاتتعامل مع الإنجليز ؟...

— إنى أحتقرُ من يتعاملُون مع الإنجليز بهذه الطريقة الخسيسَة ... خطتُنا أن نقاطِعَ الإنجليزَ ، وأن نقاطعَ أيضاً أذنابَ الإنجليز ...

— أرجو منك أن تكُف عن هذا الشطَطِ . دعْنى

وشأنى !...

وتواصلتْ خُطانا عَلَى الطَّريقِ ، لا نتناَقَلُ الحـديث ، وقد استبدَّ بنفسى كدر وخِزى . وكنت وأنا أنقل قـدمى أشعرُ كأن حذائى قد أثقله رمل ، فأنا أدفع به فى جَهْد .

ووقفتُ بغتةً وقلتُ :

أسعدَ الله مَساءك يا « سيد عتر » .

— أين أنت ذاهبٌ ؟...

— إلى حيثُ أشاء !...

— أنت وماتَهْوَى . أســـأل الله لك الهِـداية عَلَى كل حال ...

٧

لُذتُ بدارِى ...

لقد عرانى سُخْطٌ عَلَى نفسى ، وعَلَى تلك الغانية ...

إنَّ ما تحدث به « سيد العتر » أثارَ ما كان حبيساً فى سريرتِى : علاقتها بالإنجليز ... شدَّ ما نقمتُ منها تهالُكَها عَلَى هؤلاء الأعداء ...

ولكنى عدتُ أتساءل : أتكون نقمتى من تهالكها عليهم ؛ لأنهم إنجليز أم لأنهم عُشاقها ، ينافسوننى فيها ، ويزاحموننى عليها ؟...

واحتبستُ أياما فى الدار لاأبرحُ ، وأنا صريعُ الهواجسِ والشجونِ ، أغالبُ نوازعِى وتغالبُنِي ... وانتهيتُ إلى قرار

حاسم : أن أزورَها ، لأتحدثَ إليها حديثا صريحاً فى هذا الشأن ، وأسْدِى إليها نصحاً بالكفِّ عما تزاولُه من عمل وضيع !...

واشتدَّ بِىَ التحمُّس ، وأنا فى الطريقِ إليها ، وسرنى أنى مقبل على عملٍ مجيد : إنقاذِ إنسانهٍ ضالَّة من البشر ، وهدايتِها إلى الطريق القويم .

فما إن لقيتُها حتى انعقدَ لسانى ، لا ينطلقُ بشىء مما جئتُ من أجله ...

وكان اللقاء حارًّا تبخر فيه كل ما فى رأسى من نُصح وإرشاد ، فلم أستطع أمام خَدَرِ عينيها ، وبين دفْء ذراعيْها أن ألفظَ من قول ...

وفيما كنا جالسَيْن على المتكإ ، وأيدينا متشابكةٌ ، سمعتُها تقول لى :

لستُ أدرى كيف أحببتُك قبلَ التعارف ، على حين

أني لم أَرَكَ إلا فى الضوء الأزرق المُعْتم ...

فأجبتُها وعيناىَ موصولتان بعينيْها :

ذلك ما لا أدريه أنا أيضا ... لقد همتُ بكِ حبا فى ضوء المصابيح الزُرق !...

فهمهمَتْ :

إذاً كيف تخلّق هذا الحبُّ فى الظلام ؟... كيف نما وترعرع ، دون أن يرى كِلانا صاحبه رؤيةً واضحةً ؟...

— ثمة عواملُ خفيَّة ليس مصدرُها الإبصار ، هى التى تدفع بالمرء منَّا إلى الأُنس بصاحبه !...

فقالت وقد لاح على وجهها فُضُول :

أيَّةَ عواملَ تَعْنِي ؟...

فألفيتُ نفسى أقول دون تروِية :

المغناطيسية الروحية مثلا ...

فاتسعتْ حدقتاها، وهى تنظر إليَّ فى إكبار وإعجاب، وقالت:

وماهى المغناطيسية الروحية ؟...

فأحسستُ زَهْـواً يخـالجُنى، وأطنبْتُ فى القول متحمساً، أرُصُّ الكلماتِ رصّاً:

المغناطيسية الروحية، هى مصـدرُ حيـاتنا ... جوهرُ نفوسنا ... خلاصةُ أرواحنا ...

إنها تعمل بوحْى خفى لا يعلمُه أحد... هذه المغناطيسية ليس لها عيونٌ ترى، ولـكن لها بصـيرةٌ تحِس، وإن إحساسها لايخطىء أبداً... حسب هذه المغناطيسية —عندى وعندكِ— أن تتواصلاَ على البُعد، فما هي إلا أن يـكون بينهما تجـاذُب وتآلُف وانسجام، فينجمُ على الأثر ذلك الحبُّ العنيف !...

فقالتْ فى لهجَةٍ لاتخْلُو من سذاجة:

إذن صحيح ما يقولُه الناس من أن الحب أعمى ؟...

ــ ربما كان أعمَى البصر،ولـكنّه ليس أعمى البصيرة.

فانسرحتْ تفـكر لحظةً ، ثم استأنفتْ تقول ، وقد شدّتْ على يدى :

أنتَ واسعُ العِلم ، وكلامُك مفيد... أنا فى شوق إلى سماع المَزيد من حديثِك ، وإعجابى بكَ يقوى ويعظُم ...

والتقَيْنا فى قبلةٍ مديدة حَرَّى !...

٨

ويممتُ دارَها في إحدى الأُمسيّات ، فصادفني ضابطٌ إنجليزي ، خارجٌ من الشقّة التي تسكنُها صاحبتي .

وتراشقْنا بنظراتٍ فيها تشامُخ واستعلاء .

وطرقتُ الشقّة ، وأنا متجهّمُ الوجه عَبُوس ، فلما لقيَتْني قالت :

كفى اللهُ الشر !... ماذا بك ؟... أأساء إليك أحد ؟...

فأجبتها بلا تردُّد :

يؤلمني أن أرَى هؤلاء الإنجليزَ عندكِ... لا أُطيق ذلك !...

فقالتْ في ابتسامةٍ تظرُّف ، وهي تداعِب ذقني :

لمـــــاذا ؟...

— لأنى أكرهُهُم !...

— وتريدُنى عَلَى أَن أَكرَهَهم مثلَك ؟...

— حبَّذا.

فقالتْ وقد زوتْ عينَها عنى :

إنهم يحسنون معاملتى ... لم أَلْقَ منهم ما يَسُوء :

فبرَق بصرى حَنَقاً ، وقلتُ :

أَلا تُحسِّنَ لهذا البلدِ حقاً عليكِ ؟... أَين وطنيتكِ ؟...

فمضت تعابثُ نَوْطاً مُدَلًّى على صدرِها وأَجابتْ :

الوطنيةُ ياصاحبي لا تَنجُني لُقمَةَ العيش !...

— تفضِّلينَ أَن تنالِي لقمةَ العيش من طريقِ خيانةِ الوطن ؟...

فجابهتْني بقولها :

إذا اعتبرتَ كل امرىءٍ يعامل الإنجليز خائناً فستجد

كثيرا من أبناءِ الوطن ينطبقُ عليهم وصفُ الخيـانة ، وعلى رأسهم السادة الحُـكّام !...

— كل من يعاون الإنجليز خائن ، وإن ذلكِ النفرَ من السادة الحُكام لفى مقدَّمة أولئكِ الخَوَنَةِ الأنْذَال .

فأرسلتْ ضحكةً شَوْهاءَ وهى تقول :

أَحمَدُ اللهَ على أني لستُ وحـدى فيما تسميـه خيانةَ الوطن ، بل يَشرَكَنى كثير . لن تستطيعوا أن تشنقُوا هذا العددَ الجمّ من أهل البلد.

فتصايحتُ قائلا :

كل خائن جـدير أن يُشنَق ... كثُر العدد أو قـل ... لايرحمُ الوطنَ من يخونُه ...

فتدانَتْ مني هيِّنَةَ الخُطى ، وقالت فى مُلاَينة وإغراء ، وقد أمسكت بيدِى تداعبُها :

أَتستطيع هذه البلدةُ أن تمسَّنى بسوء ؟...

فقلتُ صُلْبَ المُحَيَّا :

نعم تستطيع ... تستطيع !...

— إذن حاولِ الآنَ ... إنى أمُدُّ إليكَ رقبتى !...

ورفعتْ يدى إلى عنقُها ، فجذبتُ يدِى منهـا ، نائيـا عنها ، وأنا أُردِّد :

دعِينى ... دعينى ...

فلاحقتْنى ، ومثلتْ أمامى تملأ عينَهـا منى ، وقالت فى صوتٍ ساحر :

لن تستطيعَ أَنْ تُلحقَ بى ضرراً أىَّ ضرر ... أنا أهوَنُ عليكَ !...

وقاربتْ وجهَهـا مِن وجهى ، فأحسستُ بوقـدة مشاعرها تُلهب مُحيَّاى ، وواصلتْ كلامَها تقول :

أَنتَ تحبُّني ، وأنا أحبُّكَ . مالَنا وللسياسة ؟... فلنتركْها لأصحابها ولنَنْعم بمباهِج الحب !...

وأخذتْ برأسي بين يديْها ، وانهالت عَلَيّ وجهي تقبيلا !...

٩

وانتبذَت بى رُكنا من الحُجرة، وجلسْنا عَلَى المُتَّكأ متجاورَيْن، وأراحتْ رأسها عَلَى كتفى فى تدلُّل، ثم قالتْ فى صوتٍ لينِ المكاسر يُنْبِيء عن أَلم :

أريدُ أن أحيْا أنا وأسرتى في بَحبُوحَة وَرَغَد .

فتطلعتُ إليها أقول :

أُسرتُك ؟!...

— أظننتنى يا « فهيمُ » ضائعـةً ، لا أُسرةَ لى ؟... أنا بنتُ ناس !...

— من أسرتكِ ؟...

— أُسرتِى هى ... هى أبى ، رجلٌ طاعن فى السن .

— أَبوكِ ؟!...

— رجلٌ مريض ، فى حاجةٍ ماسَّةٍ إلى معونَتى

فربَّتُّ يدَها مترفقاً ، وقلْتُ :

أَلا تستطيعين أن تكسبِي عيشَك من غيرِ هذا الطريق ؟...

فأجابتنى ، ورأسُها مايزال عَلَى كتفى :

بدأتُ حياتى بعملٍ شريف ، ولكنَّه أفضى بى رُوَيدا إلى ماترى ... إنكم ـ معشر الرجال ـ تعيبُون علينا مانتردَّى فيه ، والعيبُ كلُّه منكم ، فأنتم الذين تدفعونَ بنا إلى الخطيئة دفْعاً !...

فغمغمتُ أقول :

ليس الرجالُ كلُّهم سواء !...

فواصلت كلامَها ، وكأنها فى غيبوبة تحلم :

كلُّهم سواء !... لم أجدْ من أَحـد يبتغي بعَوْنه وجـهَ الخير ... لـكل منهم أَرَب !...

— هنالكِ « شخص » يرغبُ فى عَوْنـك ، وعزمُـه صادق ، ونيتّه بيضاء .

فرفعتْ رأْسَها عن كتِفي ، وواجهتْني تقول :

وكيف تريدُ أن تعينَنى ؟...

— أبحث لكِ عن عمل شريف .

فأرسلتْ ضِحكة ساخرة ، وقالت :

العملُ الشريف لا يُدر عليَّ من الـكسب ما يـكفينى وأسرتى .

— مِن الأعمـــال الشريفةِ مَايُتيحُ لكِ أَنتِ وأبيكِ حياة طيبة .

فرمقتنى بنظرة حادة ، وهى تقول :

ليس هناكَ من عمـــل شريف إلا كان فيـــه رجالٌ يطاردونني ، فيدفعونَ بي إلى هذا الطريق ، عوْداً عَلَى بَدْءٍ !...

— والزواج ؟...

— أين من يرتضيني زوجة ؟... امتحن نفسَك أنتَ وانظرْ هل تقبلُ أن تتزوجَ مثلي ؟... أجبني صريحَ القول !...

فأجبتُ متردِّداً :

لا يبدُو أن في الأمر استحالةً .

— أنا في حاجـة إلى من ينفقُ عَلَيَّ ، ويدُه سخيَّة ... لقد أَلِفْتُ حياةَ التنعّم والرفاهيـة ، وليس من سبيلٍ إلى أن استبدل بها غيرها ...

وران عليها الصمتُ لحَظَاتٍ ، ثم استأنفت تقول :

هبْكَ قَبِلْتَني زوجةً لك فهـلْ في مقدورِكَ أن تهبَني الحياة الرّغيدةَ التي أَنشُدها ؟...

— أنا مازلت طالبا في المدرسـة العليـا ، ومواردي

محدودة ، ولـكنني أعدك بأن أبذل قُصارى جهدى ...

ووجدتُها تقطع حبـلَ المُحاورة فى هـذا الموضوع بقولها :

دعنا من البحثِ والتدبير ، ولنفعلْ بنا الأقدارُ ماتريد.

ولاحتْ عَلَى محياها أطيافُ حسرة ، وندّتْ منها تنهّدَةُ شَجَنٍ ، فألفيتُنى أنطلِقُ فى القولِ مهتاجَ الصوت :

أستطيع أن أُنيلَكِ كلّ ماتطلبين ... خَبِّرِينى عما أنتِ فى حاجةٍ إليه ... سأعمـل المستحيلَ فى سبيـل إرضائك ... لن أُحجِمَ عن السرقةِ بل عن القتـلِ ؛ لأمنحك ماتشتهين الحصولَ عليه .

فاحتضنتنى ، وهي تغمرُنى بقُبلاتِها الحانِيَة ، تقول :

يا حبيبىَ الغالى ... لن أَرضَى لكَ أن تـكونَ سارقا ، أو أن تـكون قاتلا ، من أجل حبكَ إياى ... لَن أُوَرِّطَك

في شر وأذًى ابتغاء مرضاتى ... لا ... لا ... يا أعزَّ شخصٍ عندى. عشْ لى سليما مُعافىً ، ولنبقَ معا حبيبيْن لا يُفرِّق بينهما الدهر !!...

١٠

مَثَلتْ تنظر إلىَّ فى تعبُّد ، واستأنفتْ تقول :

لننعمْ بصفوِ ساعاتِنا الحاضِرَة ... ولتَدُمْ عِلاقتُنا كما هى ... إنى أحبك يا «فهيم»... ألا تصدقُ أنى أُحبكَ ؟... أَستطيع أَنْ أُقيم الدليلَ عَلَى هذا الحب ... لن أقبلَ منكَ أَجراً عَلَى زياراتِك ... ستكونُ خليلىَ المُفَضَّل ... « رفيقى » ... أَسمعتَ ؟... ستكونُ «رفيقى» !...

فقلتُ وأَنا دَهِش حائر

رفيقكُ ؟!...

— سأعطيك مِفتاح الشِّقة ليتسنى لك أَن تحضُرَ متى شئت وأَن تقضىَ معى من الوقت ما طابَ لك أَن تفعلَ .

لن تكونَ عليكَ في ذلك كُلْفة ... ولكنني لن أعفيكَ من بعضِ الهدايا ، مُجاراةً للعُرف : بن ، سكر ، صابون... إلى نحو ذلك من ألوان المئونة !...

لا حاجةَ بي إلى شيء من هذا كلِّه ... ولكن يجب أن نحافظ عَلَى المظاهر . من واجباتِ « الرفيق » أن يكفُل لرفيقته مئونة البيت . هذا ما يجب أن يعلمَه الناس ولاسيَّما السيدةُ مالكةُ الدار . وستقدِّم أنتَ إلى هذه السيدة أُجرةَ السكن بيدِك ، غير أني سأُعطيك الأجرة لتؤدِّيَها إليها ؛ كأنها من مالِكَ أنت خاصةً .

ووثبتْ إلى خِزانةٍ في الحجرة ففتحتها ، وَتناولتْ منها نقوداً رجعتْ بها إليَّ ، فدسَّتْها في كفي تقول : .

نحن الآن في فواتح الشهر ... اذهب بالأجرةِ إليها... إنها تقيم في الدَّوْر الأرضي ... ستكون رفيق منذُ اليوم ... مارأيُك؟...

وأبقيتُ النقودَ في يدي أرمُقُها في ذُهول ، وسمعتُ صاحبتي تُواصِلُ القول :

كل ما أَرجوهُ منك نظيرَ ذلك أن تحترمَ مواعيدَ ضُيوفي !...

وانتظمتْني رِعشة عارمة ، فقلتُ ممتدَّ الصوتِ :

ضيوفُك الإنجليز ؟!...

— أمرٌ طبيعي !....

— حقا ، طبيعي جداً !...

وأرسلتْ ضِحكةً خشنةً بشِعَة .

واقتربتْ مني تحاولُ أن تهدِّئَ من ثائرتي وهي تقول :

اقبلْ ما عرضتُه عليك ... أرجوك ... أَقسمت عليك بحق ما بيننا من حب ... سنحيا سعيدَيْن ، لا ينغِّصُ عيشَنا شيء .

وأحسستُ كأن النقود تلسَعُ يدِى ، فقذفتُ بها وأنا أقولُ متحشرِجَ الصوتِ ، مختقِنَ العين :

إنى أرفضُ ما تعرِضين علىّ ، شكراً لما أبديتِ لى من شعور رقيق !...

وانطلقتُ كالإعصار ، أُصفِّقُ البابَ خلفى .

خرجتُ إلي رصيف البحر أستَنْدى هواءه الرطْب...

فيم هذا الهوانُ ؟... وحتَّام أصبرُ عليه ؟...

كيف أرضَى لنفسى ذلكَ المسلَك ، وفيه مافيه من ضَعَة وخِسَّة وعار ...

هيهاتَ ، هيهات ...

لزامٌ أن أضعَ حدًّا لذلك العبَثِ البغيض ...

وتابعتُ خُطاىَ عَلَى الرصِيف ، مهتاجا أزفُر ، والأفكار تزحَمُنى من كل صوْب ، وهواء البحر من حولى يلطِّفُ من

حدةِ تلك الأفكار ، فما هى إلا أن أحسستُ برد الطمأنينة والارتياح .

وألفيتُنى أعاهد نفسى عَلَى ألا تَطَأ قدمى دارَهـا بعدَ اليوم .

وذهبتُ أطلبُ مجلس الرِّفاق فى المشرَب ، ووجدتُنى أسترسلُ معهم فى التنـادُر ، وأنا أرفع عقيرَتى بالضحك وأوالي التهـريج والصَّخَب ، والرفاقُ من أمرى فى عجَب عاجِب .

وما إن احْتَوَتْنى دارِى حتى تهاوَيْتُ عَلَى المتَّكا ، أستسلمُ لنوبةٍ من نشيجٍ وانتحابٍ ، وعينـاى تَسِحَّان الدموع !...

١١

دارت بىَ الأيام ...

وبررت بوعدى ، فلم تطأ قدماى تلك الشِّقةَ المعهودَة.

وأدليْتُ إلى «سيد العتر» بموجَزِ ما كان، وأنهيتُ إليه ما بنيتُ عليه العزم من مقاطعةِ تلك « الشِّقة » إلى الأبد ، فشدَّ عَلَى يدى مهنئًا إياى بصدق الوطنية ، وَسَدَادِ الرأى ، واستقامَة السلوك !...

وَرغبت إليه فى أن يتخيَّرَ لنا مقرَّ اجتماع آخرَ غيرَ ذلك المشربِ الذي يواجه الرصيفَ . حتى أتجنب أن أَرى «صاحبة الأمس» ، فوعدنى بإنجازِ ما رَغِبْتُ إليه فيه ، وكان له عند الرِّفَاقِ رأىٌ مسموع ، فلم يصعُبْ عليْه أن يُقنِعهم بهَجْرِ

المشرَب ، وما أوشكَ أن انتقلْنا إلى ميْدانِ المنشيّه فى منتدًى صغيرٍ ، واحتلَلْنا منه ركنا اتخذناه لنا مَثَابَةً ، واستأْنفْنا هنالك جَلَسَاتِنا ، نتحدثُ فى شأن مقاطعةِ البريطانيِّين ، ونرسُم الخُطَطَ ، ونُدبِّرُ وسائلَ التنفيذ .

وواصل « سيدِ العتر » نصائحَه الخَطَابِيَّةَ ، ذوات الحِكَمِ والأمثال ، ترصِّعُها أَبياتُ الشعر الحماسيِّ ... فكنّا نُصغى إليه عَلَى مَضَضٍ ، ونحنُ نرمى بأبصارِنا عُرْضَ الطريق ، نحاولُ عبثًا أَن تتصيَّدَ عيونُنا ذلك الطيفَ الساحرَ تظلِّلُه زُرْقَةُ المصابيح .

وأحسَسْنا الوحشةَ حقًّا ، فرَانَ علينا خمول .

وتصايحَ مرةً صاحبُنا «رأفت» :

هل كُتبَ علينا أن نقضىَ حياتَنا فى هذا المكانِ القابضِ الكئيبِ ، محرَّمينَ نسيمَ الشاطىء ؟... دعونا نعاودُ مجلسَنا فى المشرَب على رصيفِ البحر .

واتجهت الأنظارُ نحوى على الفَوْرِ، فقلتُ وأنا أتصنَّعُ الهدوء :

مَنْ رغبَ فى العودةِ إلى مشرب البحر فليفعلْ ، ليس لى أن أرُدَّ أحداً عما يريد ... كلٌّ وما يهْوَى ... أما أنا فلن أعودَ إلى ذلكَ المشربِ أبداً .

فعلّق «رأفت» بقوله :

إنك لأضعفُ من أن تصاولِ نفسَك حيالَ هذه «الغانِية»... إنك تهيبُ رؤْيتَها وحقِّ السماء... ياللَشجاعةِ!...

فقلتُ فى ضيق :

أحاولُ أن أحمىَ عينى من مقَاذِرِ الطريق .

فعقب « سيد العتر » قائلا :

لا جُناحَ على امرئ يريدُ أن يَقىَ نفسَه مواطِن الغِوَاية ، ويتنكَّبَ عن مزالق الشَّهوَات !... إنى أناصِرُك

يا « فهيمُ » ، وأطلبُ إلي الرفاق أن يناصِرُوكَ معى .

ونجح « سيد العتر » فى دعوتِه ، فظلَّ منتدَى المنشيةِ هو ملتقاَنا فى الأماَسىِّ .

ولَشَدَّ ما أسِفْتُ ... لِمَاَ انتهَيْناَ إليه من قرار !...

١٢

كانت الأيامُ في تتابُعِها تزيدُني تولُّهاً بها وحنيناً إليها... تلك الغانية الساحرة .

ويوما ، وأنا أسيرُ متسكِّعا في ساحة « المنشيــة » ، أتسلَّى بالنظر إلى وِجهات المخازنِ التجاريةِ ، لمحتُ « طيفهَا » على قُرْبٍ ...

واختلَجَ كِياني كله ...

نعم « هي »...

رأيتها تدخل متْجَراً مشهوراً من متاجرِ الثياب !...

وَلمحتُ طِفْلاً ، يتخطَّى الثامنةَ ، آخذاً بيدها.

واشتدَّ وَجيبُ قلبي ...



واستوقفت مركبة أجرة ، فمضت بها على الطريق ...

وألفيتُنِى على الفوْرِ أقفوُ خُطاها فى مُسَارَقَةٍ وتَلَصُّص.

وراعنى مظهرُهــا المحتَشِم ، لا طِلاءَ ولا زُوَاقَ ، ولا مُلاءة محبوكة تكشف عن مفاتِنِ الجسَدِ .

أنها تبدو سافرةً ، فى حُلَةٍ إفرنجيــة نِسْوِيَّةٍ ، يبدو شبهُهَا فيها أقربَ ماتكونَ رَبَّةَ بيتٍ إيطاليةٍ صميمةٍ .

رأيتُها بالغةَ الاهتمامِ بالغُلام الذي يصـاحِبُها ، تُوليهِ المزيدَ من التفَقُّدِ والتحنُّن ، وقد تخيرتْ له مجموعةً من طرائفِ الأثوابِ تدُلُّ على تأنُّقٍ ورَفاهةِ ذوق .

وبارحتْ المتجرَ تحملُ صُرَّةً كبيرة .

واستوقفتْ مركبةَ أجرة عن كَثَب من المتجر فمضتْ بها على الطريق .

ووجدتُنى أقفز إلى مركبة أخرى فأتبعُها بهـا . ولما بلغْنا « ميْدان محطةِ مصر » وقفتْ مركبتُها أمامَ مبنًى حَسَن

المظهرَ قائم عَلَى قمة الشارعِ الـكبير .

ومدتْ يدَها إلى السائق بأجرتِهِ فأخذَها وانصرف .

وتقدَّم منها صبيٌ بالغُ السُّمرة ، كانَ بباب المَبْنَى ، فحياها وحملَ الصُّرة عنْها ، ومالبث أن وضعهـا تحت إبطه اليسرى ، وأخذ الغلامُ بيدِه اليمنى واشتبكَ معه فى ثَرْثَرةٍ لاغية .

وألفيتُهم جميعاً يختفُون داخلَ المبْنى .

ومكثتُ قليـلا أحومُ فى رفقٍ واحـتراس ، وعينى راصدَةٌ .

وعاد الصبي البالغ السُّمرة إلى الباب، واقتعَدَ عتَبَته .

وتدانيتُ منه أُحيِّيه في ملاطفَة ومَلَقٍ .

ودار بينى وبينـه حديثٌ وُدِّيٌّ يرجع الفضلُ فيـه إلى مِنْحَةٍ سَخِيَّة ، عاجلتُه بها .

علمتُ من الصبيِّ اللينِ العريكةِ أنه ابنُ البوّاب ، وأن الدار لها من الطبقات ثلاث ، ومن الشِّقَقِ ست . وأن « الغانية » اسمها « بهية » تسكن الشقَّةَ اليمنى من الطبقة الثانية ، وهى تحيا مع أبيها . أما الغلام الذى شاهدتُه معها الساعةَ فهو ولدُها .

لم أطل وَقفتى مع الصبي ، حتى لا أثيرَ توجُّسَه ، وقنعتُ بما راج لى من أنباء .

ومضيْتُ حتى بلغتُ قمَّةَ الشارع ، أتأهَّبُ للعَوْدِ ، وإذا أنا ألمَحُ حانوتاً لبيع لفائفِ التبْغ والحلوىَ يلوحُ فيه رجلٌ ممن أعرِف ... كان منذُ قليلٍ صاحبَ مثلِ هذا الحانوتِ فى الحيِّ الذي اسكنُ فيه .

أقبلتُ عليه أناقله التحيةَ ، فهَشَّ لى وبَشَّ ، وأقْسَم أنْ أجلسَ ، واتخذ مكانَه بجوارِى يطارِحُنى الحديثَ ، فجاَء ذِكرُ الحَيِّ الذي يعمل فيه الآن ، فالتمستُ هذه الفرصةَ

للحديث عن المَبْنَى الذى تقطُنُه « بهية » وإذا هو يتحدثُ عن سكانِ المبنى وعَلَى رأسهم تلك السيدةُ الفـاضلةُ ، ذاتُ السُّمعَة الـكريمة والحياةِ الرافِهَةِ ، ، والأصل الطَّيِّب.

هـكذا عرفتُ من شأن « بهيَّةَ » ، بل ماراعنى .

لقد استبانَ لى أن هذه « الغانية » أوعَلَى الأصح هذه «السيدة» لهـا حياتَان ، تختلفُ كل منهما عن الأخرى كلَّ اختلاف ... هنالكِ غيرَ بعيد من الميناء الشرقى فى تلك الحارة المظلمة المريبة تحيا حياةَ بناتِ الهوَى ، وتُعْرَفُ باسم «نواعم» . وهنا فى « ميْدان المحطة » تعرف باسم الست « بهية » وتحيا حياة شريفة فى يُسرٍ ورخاء ، مع أبٍ متهدِّم لا يبرَح الدَّارَ وابنٍ يتقلَّبُ فى أعطـافِ النِّعْمة ، وتتوافر له أسبـابُ الإسعاد.

ومَثلتُ فى ركن الشـارع ، وقد أَسندتُ ظهرى إلى جـــدار إحـــدى الدور ، أحاول أن أُلم شَعَثَ أفـكارى ،

وأستخلصَ صورةً واضحةً لهذه «الغانية الفاضلة» .

ورأيتُنى بغتةً أقتحمُ المَبنى !...

وماهى إلا أنِ اقتادَتْـنى خُطاَىَ إلى شقتها ...

لم يكن فى ذِهْنى خُطةٌ مرسومة لهذه الزيارة ، ولم أَتَرو فيما أُفتَتِـح به القول .

كان الدافعُ مفاجئا ، قَوِياً ، يستبدُّ بى أيما استبِْداد .

وَضغَطتُ زِرَّ الجرس ...

ومضتْ لَحَظاَت ...

ثم طرق سمعى وقعُ خطاَها ، تلكَ الخُطَى التى أَلِفْـتُ صَوْتهاَ ، فلم تَعُدْ تخطئُها أُذناى ...

وعنَّ لى أَن أهرب ...

ولـكنَّ الباب انفتح قبـل أَن أفعلَ ، وبدتْ « هى » عَلَى عتبتهِ ...

وما إنْ طالعتْني حيالَها حتى فرَّ لونُهـــا ، وجحظَتْ عيناَها ...

وظلَّتْ هُنَيْهَةً تحد فيَّ النظر ؛ كأنما هي غير مصدقةٍ ماترى ...

ولم تلبثْ أن انقلبتْ سَحنتُها ، فتقلَّصتْ عضلاتُ وجهِها ، واختلجتْ شفتاها دونَ كلام ، ثم انطلقتْ تقولُ في صوتٍ يشبه الفحيحَ ، تحاولُ أن تُخافِتَ به ، خشْيَةَ أن يبلغَ آذانَ الجيران :

إياك أن تدخلَ ... أُترُكِ الدارَ في الحالِ ... لماذا تتجسَّسُ عَليَّ ؟ ... لو لمحتُك هنا ثانيةً لقتلتُك ... أقسمت لأقتلنَّك إن فعلتَ ... انصرِفْ ! ...

وكانتْ معارفُ وجهِها تَشِي بصدق ما تُهدِّدُ به ... وقد استحالتْ «الغانية» الأنيسةُ في لحظةٍ واحدة ، «نَمِرَةً» ضاريةً .

وردَّتِ البابَ فى وجهى ، فارتفعَ لردِّه صوتٌ شديد.
ووجدْتُنى أهبِطُ الدرَجَ كأنَّنى صخرةٌ تتدهورُ عَلَى سفحِ جبلٍ .

ووسِعَنى الطريقُ ، عاثرَ الخَطْوِ ، كسيرَ الفؤاد ، يملؤنى أسف ، ويملِكُنى خِزْىٌ !...

١٣

أيام عصيبة ترادفتْ عليَّ، وأنا مبَلْبَل الخاطر بما مرّ بي من شُئُون .

وطفِقتُ أوازِن بين هاتيْن الشخصيتين العجيبتَيْن : شخصيةِ «نواعم» ، وشخصيةِ «بهية» . أثمَّةَ مَنْ يستطيع أن يَجْمَع بين هاتين الحياتين المتناقضتَيْنِ في إهابٍ واحد؟... أهناك من يقدِر علَى أن يُلاءِم ، في وَلِيجَةِ نفسه ، بين تلك الصفات المتعارضَة ، من فضيلةٍ ورذيلةٍ ، من طُهْرٍ ودَنَس ، من تحفُّظٍ وانْطِلاقٍ .

وامتلأَتْ نفسي بالرغبة في أن أتَّصلَ بها .

لابد أَنْ ألقاها ... لابدَّ أن أتحدَّثَ إليها ... لا بدَّ أن

أستبينَ منهـــا هذهِ الطلاَسمَ والألغازَ .

وأحسستُ نَخْوَةَ الشباب ، وشهامَةَ الرُّجُولةِ ، تتَقِدُ بين جَنْبَيَّ .

ألا أستطيعُ أن أعْمَلَ شيئاً من أجلِ تلك الإنسانةِ الحَيْرَى ؟...

أليسَ في مقدوري أن أصرِفهَا عما هي فيه من تناَقُضٍ واضْطِراب ، فأُنجيَهاَ من حيـاة المَجاَنَةِ والمَهاَنة والشُّرود ، وأقْصُرَها عَلَى حياة الاستقامة والتصَوُّنِ والاِحتشام ؟...

لو نجحتُ في مَسْعاَيَ لـكنتُ بطـلاً هماماً ، ولَحُقَّ لي أن أزْهُوَ بأكبرِ انتصارٍ ، أُصيبهُ في دنْياَيَ .

وقر عزمي عَلَى أن أزورَها في شِقَّتِهـا الخـاصة ، شقةِ الغانيةِ «نواعم» .

وما أسرعَ أن كنتُ بالبابِ أضغَطُ زرَّ الجرس .

فلما لمحتني هَمّتْ أَن تدفعَ الباب في وجهي ، بيدَ أني بادرتُ بالمروق منه ، ودخلتُ الرَّدْهَةَ عَنْوَةً .

ومَثَلَتْ أَمامي ترميني بشُوَاظِ عينيْها وهي مسترسِلة في القول :

ألا تدعُني وشـــأني ؟... لماذا تُصِرُّ على أن تعترضَ طريقي ؟... لماذا يلَذُّ لك أن تتجسَّسَ عليَّ ؟...

فقلت خافضَ الصوت :

على رِسْلِكِ ، لن تطولَ زيارتي أكثرَ من دقائقَ معدودة ... جئتُ لأعتذرَ إليك عما بَدَرَ مني دونَ قصد... ليس ثمةَ من تجسُّسٍ أو تدَخُّل ... أقسم لكِ عَلَى ذلك أغْلَظَ القسَم ... إنها المصادفةُ التي قادتني إلى أن أعرف ما عرفتُ من سرك ، ويالَه من سرٍّ أفْعَمَ قلبي بالإكبارِ لكِ والإجلال ... لاتظني بي ظنَّ السَّوْء ... لستُ من الدناءةِ والخِسَّة بحيث أبغي هدمَ حياتِكِ الأخرى — حياةِ الأسرةِ

الفاضلة ، الحياةِ التى أُوثرها لك .

وخفَّتْ بوادرُ غضبِها ، ولاحَ على محياها التأثُّر .

وتدانيتُ منها وأنا أُواصل القول :

أؤكد لكِ أنى ما قصدتُكِ اليوم إلا صديقاً يعمُرُ قلبه وفاءٌ وإخلاص ، وتحدوه رغبةٌ صادِقَةٌ فى الأخذِ بيدِكِ ... ألا تمنحينَنِي بضعَ دقائق ؟...

وإذا هى تأخذ بيدى متجهةً إلى حجرةِ النوم ، فقلتُ لها على الأثر فى لهجةٍ حازمةٍ :

لا ... دَعينا من حُجرة النوم... نجلسُ هنا فى الرَّدْهة.... هذا أَلْيَقُ !...

وألقتْ علىَّ نظرةً متفحِّصَةً .

وجلسْنَا على المتَّكأِ .

وأظلتْنا غاشِيَةٌ من صمت .

ووجدتُنى أقولُ ، وقد امتدتْ يدِى إلى يدِها تربتُها فى ترفُّق :

لماذا أخفَيْتِ عنى جَلِيَّةَ أَمرِكِ ؟...

— كيف تريدُنى أَن أَكشفَ لك عن حياةٍ سعيت جهدى فى صيانتهـا وجَعْلِها بمنأى عن الشُّبُهَاتِ ؟... هنـاك ابنى ... ابني الوحيد ، إنه ذخيرة حياتي ... من أَجله أَعيش وفى سبيله أَبذُل أعزّ ما أملك ... غايةُ ما أَطمحُ إليـه هو أن أُمهِّد لولدى هذا عيشةً راضية وسُمعة مَصُونَةً .

وأمسـكتْ عن الـكلام هُنَيْهَةً ، ثم عادتْ تقول فى صوت متهدِّج ، وقد هاج شعورها واحتد :

أُريد أن يحيا بعيداً عن ذل الحاجة وتَعاسَةِ الحِرمان .

لقدْ ذقتُ مرارةَ هذه الحياة ، وسأحميه منهـا مادام فى جسدى عرق ينبِض .

فقلت فى هينة :

ألا تستطيعينَ أن تكفُلى لولدك حياتَه المنشودَة من طريقٍ غيرِ الطريقِ الذى تسلُكين ؟...

فقالت فى توكيد :

ألم أتحدَّثْ إليك فى ذلك من قبل ؟... إنى فى حاجة إلى عَوْنٍ مادِّيٍّ سَخِىٍّ لكى أستطيعَ أن أَكْفلَ له تَنْشِئَةً كريمةً يغدُو بها رجلا عظيما .

وراحت ترمى ببصرِها عُرْضَ الحجرةِ ؛ كأنما تحاولُ استِشْفَافَ طيف خلفَ الجُدران . وواصلتْ حديثَها تقول :

لن أَحرِمه شيئا ... يجبُ أَن يرتدىَ من الملابس ماغَلاَ ... يجبُ أَن يأكلَ من الطعام ما طابَ ... يجبُ أَن يتَعَلَّمَ في مدارسَ ممتازة ... يجب أن يحيا حياةَ أَبناء الطبقةِ الراقيةِ .

وأشرقَ وجهُها بابتسامةٍ زاهية ، وواجهتْني وهى تقولُ في سذاجة محبَّبَة :

أتصدّق أنه ، وهو فى الثـــامنة الآن ، يجيد التحدث بالإنجليزية والفرَنسية والإيطـالية ؟... إنه يستطيـع أن يشاتِمَني بهـذه اللُغَات... شدَّ ما هو خفيفُ الدم ، أنيسُ الروح !...

وكَرْكَرَتْ في ضَحِك .

فقلت لها :

ودِدْت أنَ أجالِسَه ، وأَنَ أستمِـعَ إلى حديثِهِ .

— أحقاً تقول ؟...

ما أطيبَ صحبَة الطِّفْلِ الظَّرِيف .

فالتمَعتْ عيناَها ، وقالت :

يسعدنى أن تتعرفَ إليه ، وأَنَ تأنسَ به ،وسترى أنه

فوقَ ما أصِف لك .

— وكيف السبيلُ إلىلقائه ؟...

فانسرحت تفكر لحَظَاتٍ ، ثم استأنفَتِ القولَ :

سأدعُوكَ إلى تناولِ الشاى معه هُناكَ .

— هناكَ ؟!...

— فى شقَّتِنا بميدان المحطة... «بهية» هى التى تدعوك.

— ولكنَّ « بهيــة » صارَحَتْنى بأنها أَزمعتْ قتلِى إذا وَطِئَتْ قدماىَ شِقتّها ... هناكِ !...

فربَّتَتْ يدى متحببةً تقول :

شُلّت يدٌ ترتفعُ لتؤذيَك !...

— أجادّةٌ أنت فيما تقولين ؟...

— دونَ شــكٍّ ... إنى أدعوكَ إلى زيارتى بميْدانِ المَحَطة ، والموعدُ بعدَ غدٍ ، فى منتصَف الســاعة السادسةِ

بعد الظهر .

— أليسَ لى أَن أَتساءلَ عن سِرِّ هذا الانقلاب الذى طرأ عليك ؟...

فأجابتْ وهى تُشيحُ ببصرِها عنى :

لستُ أَدرِى ... كلُّ ما أَستطيع أَن أقولَه هو أنّى أحس نحوكَ الساعةَ ثقةً لا حدَّ لها .

— أشكرُكِ ... سأَحرِصُ دائماً على أن أَكونَ جديراً بتلكِ الثقةِ الغاليةِ التى أَعتزُّ بها أيّما اعتزاز !

— سألقاكَ «هناكَ» ... وستكون «خاطبى» !...

— خاطِبَك ؟...

— نعم !... لا يستطيع أن يزورَنى فى دارِى هناكَ إلا مَنْ كان « خاطبى » .

— معقول !...

لقد عرفتكَ فى المستشفى الذى أعملُ ممرضةً فيه ...

إن عملى في المستشفى يستغرِق وقتى أجمعَ خارجَ الدار ...
أما أَنتَ فتقضي فترة التمرين فى المستشفَى الذى أعملُ فيه .

— أطبيبٌ أَنا إذَنْ ؟...

— لم تبلغْ بعدُ مرتبةَ الأطباء ... أنتَ طالبٌ فى أُخْرَيَاتِ الدراسة .

— عظيم ... عظيم !..

— لقد تعارفْنا فى المستشفَى ، واستوثَقَتْ بيننا علاقةُ حُبٍّ شريف ، فتقدمتَ تخطُبُنى ، وتواعدنا عَلَى الزواج...

— حكايةٌ ظريفة !...

— وستكونُ ، وأنتَ هناكَ في دار «بهية» ، شاباً مهذباً محافظاً على التقاليد ، شاباً محتشِما كلَّ الاِحتشام ، وَقُوراً أشدَّ الوقَار ، يبدو عليك الخجل ، كأنكَ فتاةٌ عذراء !...

— سأكونُ ممثِّلا لدورٍ جديد !...

— ألا يروقُك أن تبدوَ كأنك «خاطبي» ؟

— ألا يروقكَ أن تبدوَ كأنكَ «خاطبى» ؟...

— يروقُنى حقا ... باعتبارِ أنه تمثيل !...

— فليكُن ...

— ألا تَعُدِّين هذا خدعة ؟...

فحملَقَتْ فِيَّ غاضبةً ، وتصايَحَتْ تقول :

أرجو منك يا « فهيمُ » ألا تُعقِّدَ الأمورَ بمثلِ هـذه الفلسفةِ العقيمةِ .

فعجِلت أقولُ متضاحكا :

حقكِ عليَّ ... لا تغضَبى ... سأنفذ أوامرَكِ ...

فنهضتْ وهي تردد :

خدعة ؟!... عنْ أيِّ خدعة تتكلمُ أيها التلميذ الذكى ؟...

ومثلَتْ أمامى تحدقُ فيَّ قائلةً :

كلنا مخادِعُون ، كُلُّنا ... أتستطيع أن تبرىء نفسك

من المخادَعة ؟... كنْ صريحاً ... ألم تخادِعْ ؟... ألم تظهرْ بغيرِ مظهرك ؟... ألم تكذِبْ ؟... ألم تنافِق ؟... أَلم ...

— حسبكِ ... حسبكِ ... أنا الشيطانُ يتشكل في صورة إنسان !...

وتشابكتْ نَظَراتُنا حِيناً ..

وتضاحكْناَ معاً ...

وأقبلتْ عليَّ تحتضِنُني وتقول :

بل أنتَ مَلاَكِي الحارسُ ... أنتَ كنزُ حبي ...

وما كادتْ شِفاهُنا تلتحِم في قُبلة عارِمة حتى رنَّ جرس الباب ، فانتزعتْ «نواعمُ» نفسَها مني ، وهرِعَتْ إليه .

وإذا ضابطٌ إنجليزيٌ يقتحم ...

وإذا هي تتلقاهُ في تهلُّلٍ وترْحابٍ ...

ووجدْتُني أَتوخَّى بابَ الشِّقـة في خَطْوٍ ثابتٍ ، وأنا

شامخُ الأنفِ ، رافعُ الهامةِ ، أرمى الضابطَ الإنجليزىَّ بنظرةِ استعلاء وازْدِرَاءٍ ...

وطوانى الدرَجُ فى مهبِطى ، وقلبى يتنزَّى من سُخْط وحَنَق .

لنْ ألبِّىَ دعوتَها إياى لتناوُل الشاى ... لن أَستجيبَ لدعوةِ امرأةٍ خدَّاعةٍ ذاتِ وجهين ...

لن تطأ قدَمى شِقَّتَها ، هنا أو هناك ...

انتهى ما بينى وبينها ... إلى غير مَرْجِع !...

١٤

ما كاد يحل الموعد المضروبُ حتى كنتُ أمام شقتها في ميدان المحطة .

وتزاحفتْ على سمعي أصواتُ هتافاتٍ ، صبيانية النبرات يصحبها ضوضاء ، تبينْتُ فيها هذه النداءاتِ :

فليحْيَ بطلُ السكمين .. فليحْيَ الميجر «عبد الله بك» ، هازمُ الإنجليز .

وما إنْ خفَّ الهتاف حتى ارتفعَ صوتٌ أجشُّ متسلِّخٌ ، يردد :

يحيا الوطن ... تحيا مصرُ حرة ... لتسقُطِ الحماية إلى الأبد !...

فانطلق الصِّبيانُ يتصايَحُون بهذه النِّداءات فى صَخَبٍ شـــديد .

وأخذتْنى الحَيْرة فلم أَلمس زِرَّ الجرس .

وتضاَءلَتِ الهُتافاتُ ، وفُتح البابُ بغتةً ، وخرج صبى بالغُ السُّمرة ، تُدَبْدِبُ قدماه ، وهو يحي رُفَقـــاءَه تحيةَ توديعٍ . وهَبطَ الدرجَ في حَمِيَّةٍ ومراح ولم يكن هذا الصبيُّ غيرَ ابنِ البوابِ الذى لقيتُه يومَ زيارتِىَ الأولى لهذه الدار .

وتدسَّسَتْ أنظـاري داخل الردهةِ ، فألفيتُ صُحبةً من الأطفـالِ ، على رءوسهم طراطيرُ متبايِنَةُ الشُّكولِ ، مختلفةُ الألوانِ ، وفى أيديهمْ سُيُوف مشهورةٌ من صفيحٍ ، وأعلامٌ وطنيةٌ من وَرَق .

وبدتْ « هي » فجأةً وسط الحَشْدِ تشُق الصفوف قائلة :

اهدءُوا قليلا يا أولادى ... آن لكم أن تَستريحوا ... لقد أجهَدْتم أنفسَكم .

فسكنَت الجَلَبةُ ، وتزايَل الهَرْجُ والمَرْج .

ولمحتنى « هى » عن كَثَبٍ من الباب ، فهرولتْ إلىَّ ، يكسو وجهَهَا حَرَج ، وقالتْ مُرَدِّدَةً :

تفضلْ !... تفضلْ !... ادخل !... ادخل !...

وأشارت إلىَّ أَنْ أُقْبِلَ على الردهة وهى تقول :

الضوضاءُ شديدة .

وراحِ الصبيانُ يرمُقوننى بنَظَرات تطلُّعٍ وفضول ، وجعلوا يتهامسُون ويتغامزُون .

ومِلتُ عليها أُلقِى فى أذنها بتلك الكلمات :

إذا كان فى وجودى ما يَعكر صفو الصبيان فلأُرْجِئ الزيارة .

فأمسكت بيدي وأحَلَّتْني قاعةَ الضيوف وهي تقول:

تفضل !... إنَّ وقتَ الصِّبيان قد حان .. أُولئكَ رفاق ابني « وفيق » جاءُوا يلعبون معه .. انتظِرْني هنا لحَظاتٍ .. إني عائدةٌ إليك .

ومضتْ عن القاعةِ عجِلةَ الخُطاَ ، وظلَّ الباب غيرَ مقفَل ، فاستطعْتُ أن أشهدَ ما يدورُ في الردهةِ على مَقرَبَةٍ .

ولاحَ وسطَ الجمْع رجل قميءٌ أشْيَبُ ، ضامرُ الوجه ، غائرُ الأشداق ، يروحُ ويغدو بين الصبيةِ في خُطواتٍ مُتخلِّجة ، وهو يتفقدُ ويتفحَّصُ كأنهُ قائدُ كتيبة يعرض الجند . كانت في يدهِ عَصاً يتوكَأ عليها ، وإنه لِفَرْطِ ضآلته وهُزالهِ تكاد العينُ تُخطِئُه في زُمْرَةِ الصِّبيان . ولقد استبان لي أنه يرتدي حُلةً سوداءَ باليةً من حُلَلِ المَراسِمِ « الرِّدِنْجُوت » ، يُحلِّي صدرَها بعضُ الوَشْيِ والنقش علي هيئةِ الأَوْسِمَةِ ، والأطفال حواليْه يتواثبُون ،

ويتصايحُون ، راغبين إليه أن يمنحَهم ما وعدهم إياه ، فينثنى يجيبُهم فى إمرةٍ وتسلُّط :

واحداً ، واحداً ... النظام أولا ...

وانكبَّ عليهم ينظِّمُهم صفوفا ، ثم شَرَع يوزِّعُ عليهمْ قراطيسَ الحَلْوى . ثم مثَلَ أمامهم ، يعالجُ أن يصلُبَ عُودَه ، وصاح منتفخَ الأوْدَاجِ :

النشيد !...

فأخذ الصبيان فى الإنشــــاد ، والرجل يساير النَغَم بيديْه تارةً وبقدميه أخرى ، كأنه « ضابط إيقاع » فى جُوَقةٍ تعزف الموسيقى .

وشَــقتْ سماءَ الحجرةِ أصواتُ الصبِّيـان منبعثةً من حناجرهم بهذه الأبيات :

مصر العزيزةُ لى وطنْ

وهى الحِمَى وهي السَّكَنْ

وهي الفريدةُ فى الزمن
وجميعُ ما فيهـــا حسنْ
لسمائهـــا الصيتُ البعيدْ
ولأرضِها الخصبُ المَزيدْ
ولنيلهـــا الوافى السعيدْ
كلُّ الأيادِى والمِنَنْ

وما إن أتم الغِلمانُ نشيدَ الوطنيةِ حتى صاحَ الرجل :

تعظيم سلام !...

فارتفعتْ أيدى الصغار إلى جباههم ، شارةَ التحية .

واستأنفَ الرجلُ صيحَته قائلا:

انصراف ...!

فثار الهَرْجُ والمَرجُ بين الغِلمان ، وهم فى مُنْصَرَفِهم من الشّقة ، وقد حَمِيَ بينهم لَغْوُ الحديث .

ولم يبقَ فى الشـقّةِ إلا الرجلُ القَمِيءُ الأشيبُ ، وبجانبه طفلٌ لم أَشُكَّ في أنه « وَفِيق » ...

وهلّتْ « بهية » تقول للرجل :

آن لك أن تخلع سُتْرَةَ المراسِم هـــذه ، وأن تستبدلَ بها ملابسَك المألوفة . ولا تنس أن تغسِلَ وجهَ الغلام وأن تُلْبِسَه حُلّةً نظيفة .

فأذعن الرجل لما تقوله « بهية » إذعانَ طفلٍ مِطْوَاعٍ وهو يردد :

حسناً ... حسناً ...

واجتذبَ يَدَ الغلام ، وما لبثاَ أن استخْفَياَ فى الطُّرْقَة الممدودة .

١٥

وجاءتني « بهية » تقول :

شَدَّ ما أنا آسفةٌ لهذه الضوضاءِ التي استقبلتكَ ساعةَ حضورِكَ ... ولكن ماذا كان في مقدوري أن أصنعَ ؟... إنهم أطفالٌ ، ويجب أن نتيحَ لهم فرصةَ لهوٍ وَمَسرَّة .

— مؤكد ... وإني أحبُ الأطفال !...

— أصحيحٌ هذا ؟...

— أُحبُّهم جداً ... لي إخوةٌ وأخواتٌ صغار أرعاهُم ، وأتولى شئونَهمْ ... وكذلك ألعبُ معهم !...

— يُسعدُني أن أسمعَ منكَ هذا القولَ ... والآن تعال معي !... إن « الشايَ » ينتظرُكَ .

— شكراً !...

ونهضنا إلى قاعة الطعام ، فألفيتُ مائدةً حافلةً بأطايبِ الشَّطائرِ والفطائرِ والحَلْويَاتِ . فقلتُ على الفْور :

يا لها من وليمةٍ عظيمةٍ !...

فأجابتْ فى ابتسامةٍ رقيقة :

إنى أحتفل بزيارة « خاطبِى » لِى فى دارى زِيارَتَهُ الأولى ...!

فَفرَكْتُ إحدى يدَىَّ بالأخرى ، وقلتُ :

هذا يُشَرِّفُنِى !...

فأجابَتْ وفي فَمِها ضِحْكَةٌ هيِّنَة :

لا أظُن .

— كيف لا يُشرِّفُنِى أن أكون « خاطبَ » الآنسة « بهية » ؟...

فطفَرت منها تنَهُّدَةٌ وانسرَحَتْ هائمَةَ نظَراتُهُمْ :

ليتَنِي كنتُ حقاً هذهِ الآنسة ... إذَنْ لأحسَسْتُ بالِغَ السعادة بزيارةِ « خاطبِي » لى .

فقلتُ مهوِّناً عليها الأمر :

ولكنَّكِ فى هذه الساعةِ الآنسةُ « بهيةُ » حقاً ، وأنا « خاطبُك » ... لا يستطيعُ أن ينكر ذلك أحد !...

— إنكَ لتنكر هذا ...!

— إنى لا أنكرُ « الأمرَ » فى هذه اللحظة من حياتِنا .

— إنها لحظةٌ من لحظات الخدَعِ والأوهام !...

— لا يجوز لنا أن نُفلت مثلَ هذه اللحَظَات وإن كانت خادِعة مُوهِمةً ... فلنستمتِع بها هي ؛ كما هيأتْها لنا الملابسات ... ربما كان لنا فى عالم

الخدعِ والأوهام من ألوانِ المُتَعِ وللذّاتِ مالا يتسنَّى في دنيا الحقيقةِ والواقع

— إن حديثك شائق ، وإنه ليفعمنى طربا ... أحس وأنا أستمعُ إليكَ أنى قد غدَوْتُ تلميذةً تُصغِى إلى نصائحِ أستاذٍ رشيدٍ .

— إنى لسعيدٌ فخور بأن تكونى تلميذَتِىَ النجيبة !...

فمنحتْنِي ابتسامةً مِنِ ابتساماتها الأنيسةِ الرحيبةِ ... ابتسامةً يتجلى فيها صفاءُ النفس ونقاءُ السريرة ، ثم انثنتْ تصبُّ الشاىَ ، وتقدِّمُ لى الفطائرَ وما إليها مما حوت الصِّحَافُ .

ومكثنا وقتاً نطعَم ونشرَب ، لا ننبِس ، ونحنُ نتطارَحُ النظر ، ونتهادَى بالابتسام .

ولم يمضِ طويلُ وقتٍ حتى طرقَ الحجرة الرجـلُ

القَمِيءُ الأشْيَبُ ، وهو مُمْسكٌ بيدِ الصبى ، وقد ارتدَى كل منهما ثياباً غير ما كان يلبَس .

ونهضتْ « بهيــةُ » تقدِّمُهُما إلىَّ ، فقالت مشيرةً إلى الرجل :

أَبِى « عبد الله بك » .

فبادر الرجل مصحِّحاً قولَها :

المِيجَر « عبد الله بك » .

فأرسلت « بهيةُ » ضِحكةً مُقتضبةً وهى تقول :

نسيتُ ... الميجر « عبد الله بك » ... لا تؤاخذْنى يا أَبِى !...

والتفَتتْ إلى أبيها تقولُ مشيرة إلىَّ :

« فهيم » بك ... أو على الأصح « الدكتور فهيم » ، لقد حدثتكَ فى شأنه .

فتقدم الرجل منى وقـــد أطبقَ على يدىَّ مصافحاً وهو يقول :

تشرفنا يا دكتور « فهيم » !... إن ابنتى تُثنِي عليك ثناءً طيِّباً .

والتفتت « بهية » إلى الصبى تقول :

وهذا ابنى « وفيق » !...

فقلت على الفور معقِّباً :

لا يمكن أن يكونَ غيْرَ ذلك !...

فتضاحكتْ « بهيةُ » تقول :

كيف ؟...

— إنه نَسمةٌ أصيلةٌ منك ...

— يسعدنى أن أسمَعَ هذا !...

وأقبلتُ على الصبىِّ ، فواجهنى بعينَىْ أُمِّه المتضايقتَيْن



... رجل أشيب ، كأنه قائد كتيبة يعرض الجند ! ...

ذَوَاتَىْ الخَدَر والفُتور ، فوجدتُنى أحمـلُه وأقبِّلُ جبهتَه .
وما أسرعَ أن أخرجتُ من جيبي عُلْبَةً تحوى مجموعةَ
من أنابيبِ الألوانِ ، وناولتُه إياها أقول :

هذة هديةٌ صغيرةٌ لك يا صغيرى ...

فجعل يتفحص العُلبَة لامعَ العينِ ، مهتَزَّ الأعطاف
وهو يقول :

إني أحبُّ الرسم .

— عظيم !!...

وقال الجَدُّ للصبى :

سنُلوِّنُ معاً بعضَ الصور التى عندى ... صورِ المعـاركَ
الحربية ... صورِ البُطولة الوطنية ...!

١٦

وجمعتنا مائدةُ الشاى ، تقوم على خدمتِنا « بهيـة » في رَشاقةٍ ومَهارة . ورأيت « عبدالله بك » يواجهُنى بقوله :

إنَّ ابنتي غَفَلتْ — عندما قدمتْنى إليك — أن تذكرَ لك كيف ظفرتُ برُتْبة « ميجر » .

فسارقتْه ابنتُه نظراتٍ لا تخـــلُو منِ امتعاضٍ ، بَيْدَ أنه ظَلَّ متابعاً حديثَه ، غيرَ مَعْنِيٍّ بما تُبدِى :

لا بدَّ أن يُلِمَّ الدكتورُ « فهيمٌ » بحقيقةِ المسألةِ .

ثم ما لبثَ أن ابتَدَرَنِى يقول :

إن « عُرابى » الزعيمَ الوطنىَّ ، هو الذى منحنِي

هذه الرُّتبــةَ ، وهو الذى علَّقَ بيدِه على صـدرِى وِسَامَها العظيمَ .

فهمهَمْتُ دَهِشاً وأنا أُدَاوِلُ النظرَ بين الأبِ وابنتِه :

جميلٌ ... جميلٌ جداً ...

وتدفَّق الرجلُ فى حديثـه ، يُرْعِشُه الحَمَاسُ ، على حينَ كان يتجلَّى الحرجُ على مُحَيَّا ابنتِه ... قال :

لقد اشتركتُ فى حربِ « عرابى » بالباعِ والذراعِ . كنتُ بين متطوعينَ من الأهلينَ نُؤَلِّفُ عصاباتٍ مسلحةً تُصْلِى جنودَ الإنجليزِ نيراناً حاميةً .

وصاح « وفيقٌ » عندَئذٍ :

إن جَدِّى نَصَبَ للإنجليزِ كَمِيناً ، وذَبَحهُم عن آخرِهم ... جَدِّى بطلٌ كبير ، وأنا أُحبُّه حُباً يساوِى الدُّنيا كلَّها ...

وتعلَّقَ الصبىُّ بعُنُقِ جَدِّه يُمْطِرُه وابلاً من القُبُلات ،

والجَدُّ مُشرِقُ الوجهِ ، فَخور . أما « بهيـة » فكانت تتجرّعُ ما يدورُ من الحديثِ ، وهي صاغِرةٌ ، لا تُبدي ولا تُعيد ...

ووجَّه « وفيقٌ » قولَه إليَّ :

ألا تريد أن ترى بعينيْك كيف نصَبَ جدِّي السكِّينَ للإنجليز ، وذبَحَهُم عن آخرهم ؟... أنا وجَدِّي نستطيع أن نُرِيَكَ هذه الواقِعَةَ المشهورةَ .

ولم ينتظر الصبيُّ جوابي ... سَرعانَ ما نهضَ هو وجدُّه يمثلان أمامي قصةَ « السكِّينِ » في سَذاجةٍ بالغةٍ . واستعانَ الممثِّلانِ في الأداءِ ببعضِ أثاثِ الحُجْرةِ ومفروشاتِها وفي ختامِ المَشْهدِ ، وقد برزت فِرقةُ المتطوعينَ برئاسة « الميجر » ، وانقضَّتْ على الأعداءِ تفتِكُ بهم ؛ ـ اشتدَّ التحمُّسُ بالبطلَيْن حتى كادا يُحطِّمانِ الأثاثَ ، فتداركتْ « بهيةُ » الأمر ، وعملتْ على وقفِ المذبحةِ !...

وعاد « الجَدُّ وحفيدُه » إلى مائدة الشـاى ، والعَرَقُ يتصبَّبُ من جبينِهِماَ ، وأَنَاَ أصفِّقُ لهما وأتَهَلَّلُ ، مُعجَباً بما كانَ مِنهُما من بُطُولةٍ نادِرَةٍ .

وجنحَتْ « بهية » على أُذُنِ أبيها تُسِرُّ إليه كلمـاتٍ ، فنهضَ يحيِّنِي مُوَدِّعاً ، وقد أخذَ بيدِ حفيدِه وهو يقول :

يجب أن يستريحَ الولدُ قبل العَشاَءِ ... سُرُورى عظيمٌ بلقائِكَ ... تشرفْنا ... لا تقطَعْ عنا زيأَرَتَك ...

وأدبر كلاهُما عن قاعة المائدة .

وبعد صمت قصير ، تنهّدتْ « بهيةُ » تقول وعيناَها لا تبارِحانِ قدحَ الشاى :

عندى هنا فى الشِّقةِ طفلانِ ، أحدُهما جاوزَ الثَّمانينَ ، والآخرُ لا يَعْدُو الثامنة !...

— أتسمِّينَ أباكِ طفلا ؟...

— بل أصغرُ من طفـــل ... لا حرَجَ عليَّ في أن أكشفَ لك حقيقةَ حالهِ ... إن عقله في تناقُصٍ، ولكنَّه هادئٌ مسالمٌ ... إنه يبالغ في التصوُّر والتصويرِ، ويخلِط بين الحقائقِ والأباطيلِ ...

— واشتراكه في حرب « عرابي » ؟...

— لقد اشترك فيهـــا كل من عاصرَها بقدرٍ يقلُّ أو يكثرُ !...

— ورُتْبَةُ « الميجر » ؟...

— أما هــــذه فعلمها عند الله !... وعند الراسِخينَ في العلمِ والتاريخ !...

— أكان أبوك من رجالِ الجيش ؟...

— كان مدرساً للُّغة العربية ، وكان مشغوفاً أيَّما شغفٍ

بقراءةِ أحداثِ الحروب ، وسِــــيَرِ الأبطــال ...
والآنَ وقد شاخَ عقـــلُه ونالَ منه الضَّعفُ ، وأصبحَ
قعيدَ الدَّارِ ، لم يَجِدْ بُدًّا من أن ينشىء لنفسِه دنيــاهُ
علي هَوَاه ... فهو يجمعُ الأطفالَ ، ويقيمُ نفسَـــه
عليهم زعيما ، وهـو يُنظِّم منهم مظـاهَراتٍ داخليةً
فى نطـاقِ الشِّـقة الضَّيِّق ، ويمثِّـلُ معهم أُحدوثةَ
« الـكمين » كما شـاهدتَها أنتَ السـاعةَ ... ولا أُخفِى
عنك أنى ضَجِرَةٌ ، غـيرُ مطمئنة إلى ملازَمَةِ ولدى له
فى هذه الألاعِيب الزائفة .

— لمـاذا تصفينها بهــذا الوصف ؟... إنى معجب
بها كل الإعجاب !... الحق أنها جديرة أن تبث بين جَنْبَيِ
الصبِيِّ رُوحَ الوطنية والبُطولة .

— كل شىء إذا جاوزَ حدَّه انقلب إلى ضـدِّه ...

لا أريدُ أن يشُبَّ ابنى مَخدوعاً بالأوْهَام ... إنى أُعِدُّه لحياةٍ سَوِيَّةٍ قِوامُها الجِد والعمل ، وطابَعُها الهدوءُ والاِتِّزان ، فأَما حياة التهوُّرِ والطيْشِ فإنى أخشَى أن تُورِدَهُ موارِدَ البَوَارِ !...

١٧

سلكتُ السبيل إلى دارى ، وفى رأسِى أفكارٌ تعتَلِجُ ، وبين جوانِحِى مشاعرُ أشتاتٌ .

وما إِنْ حَلَلْتُ الدار حتى جنحتُ إلى النافذة أتنسَّمُ هواءَ العَشيَّةِ ، وأنا أعرِضُ تلك المشاهدَ العجيبةَ التى مرت بى فى شِقَّةِ « بهيــةَ » ... كنت أحاول أن أستجلِى فيهــا صورةَ « الغانيةِ الأمِّ » ، تلك التى تتقاسَمُها حياتانِ متضارِبتَانِ . وانثنَيْتُ أفكِّرُ فيما عسَى أن يكون من عِلاقتِى بها فى قابِلِ أيامِى ... أليس لزاما أن أحدِّدَ تلك العِلاقةَ منذُ الساعة ؟... أىَّ الشخصيْن أكون : الخاطبُ العفيفُ للسيِّدَةِ « بهية » ، أم الخليلُ السادِرُ للغانيَةِ « نواعم » ؟...

ولم أَرْكَنْ على فَرْطِ التفكيرِ إلى قَرَار ، فانهوَيْتُ على سَرِيرِى مكدودَ الذِّهْنِ ، مستَوْفِزَ الأعصابِ .

وتلاحقَتِ اللَّيَالِى ، والحَيْرَةُ بِى تشـــتد ، والقَلَقُ يستَبِدُّ ... وكان مما يُذْكِى حَيْرَتِى وقَلَقِى ما أُحِسُّه نحو الغانيـةِ « نواعمَ » من تلَهُّبِ شوقٍ ، واضطرامِ حَنِينٍ . ولَشَدَّماَ استعَرتْ رغبتى فى أَنْ أضمَّها بين ذِرَاعَىَّ ، وأَعتصِرَ شفَتَيْها بقُبُلَاتٍ هَيْمَانَ ... على أَنى كنتُ لا ألبثُ أَنْ يثوبَ إلىَّ رَشَادِى ، فأشـعُرَ بخزْيٍ يخالِجُه أَسًى ، وأنحِى على نفسى باللَّوْمِ والتأنيبِ ؛ إذ تعبَثُ بخيـالِى هذِه النَّزَوَاتُ الشائِنَةُ .

... ويوماً لم أُطِقْ صبراً ، فطِرتُ إليها في شِقَّتِها المُرِيبَةِ ، فتَلَقَّتْنِي فى حفَاوَةٍ ليس وراءها مزيدٌ ... وأمضيْنَا معًا ساعةً من أعنفِ ساعاتِ الحبِّ المَنْهُوم ... ومن عَجَبٍ أَنِّى لم أفاتِحْها ، وأنَّهـا كذلك لم تفاتِحْنِي بكَلِمَةٍ واحدةٍ

تتعلقُ بحفلَةِ الشاي من قُرْبٍ أو بُعْدٍ . على أني وأنا على أهْبةِ الخروج ، مبارحاً الشِّقَّةَ ، سمعتها تهْمِسُ في أُذُنِي قائلة :

لقد سألَ عنكَ « الميجرُ » ، وكذلك سأل عنك حفيدُه ... لقد تركْتَ في قلبيْهما أثراً طيباً بزيارتِك وبحديثِك .

— شكراً جزيلا ... ذلكِ شعُوري نحوَهما .

— إنهما يَتُوقانِ إلى لُقْيَاكَ .

— أيُسْمَحُ لى بزيارةٍ أخرى ؟...

— باعتبارِكَ « خاطبَ بهيةَ » ... وفى الحُدُودِ المرسومةِ !...

وتلاعبَتْ على شِفاهِنا ابتساماتٌ ...

وسرعانَ ما حدَّدَتْ لى موعدَ الزيارة فى شِقَّتِها بمَيْدَانِ المحطة ، شِقةِ السيدة « بهية » .

واستجبْتُ للدعوةِ فى موعدِها المضْرُوب !...

وكان « الميجرُ » « عبد الله بك » أولَ من لَقِيَــنِى ... وساعةَ وقَعَ بصرُهُ علَىَّ ، انطلَقَ لسانُه بالإِنشــاد ووجهُه مبسوطُ الأسارير ... قال :

هــل تعلمون تحيتى   عند القدوم إليــكُمْ
أَنا إِنْ رأيتُ جماعةً   قلتُ السلامُ عليــكُمْ

فأجبته متحمِّساً :

وعليــكُمْ ألفُ سلامٍ ... ولكَ ألفُ إِكرامٍ ...!

وَجرَّنِى من يدى مُماشِينِى إلى قاعَةِ الضُّيوفِ ، وجلس قُبَالَــتِى يُحيِينى مردِّداً قولَه :

أهلا وسهلا يا دكتور « فهيم » ... نوَّرتَ البيتَ .

ثم غَشِيَه صمتٌ ، وركبتْ سَحْنَتَه جَهَامَة وجــدٌّ ، ثم أَشْرَعَ بصرَه إلىَّ وجعل يُصوِّبُه ويصعِّدُه فىَّ ، وأخيراً

قال فى تعاظمٍ وكبرياء :

حدَّثتنى ابنتى برغبتِكَ فى الزَّواج بها ... هذا حسن ، ولكنى أرى واجباً علىَّ ، قبل أن أمنح رضاىَ ، قبلَ أن أوافِقَ على الشُّروع فى الزواج ، أن أتقصَّى كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ من أمْرِكَ ... لا أُزوِّجُ ابنتى « بهيةَ » ملاكَ الطُّهْرِ والعفافِ ، إلا لِمَنْ هو كُفْءٌ لها ... سأُلقِى عليكَ أسئلةً يجبُ أن تُجيبَنى عنها فى وُضوحٍ وصِدْقٍ ... واعْلَمْ أنَّك أمامَ رجلٍ يصارِحُكَ بأنَّه لا يُعْوِزُه نَفَاذُ البصيرةِ ، وصِدْقُ الفِراسَةِ ، وأنَّ له تجاربَ لا تعدُّ ولا تُحصى ، فمِنَ الخيرِ لكَ أن تختصرَ الطريقَ ، وأن تُخبرَنِى بجَلِيَّةِ أمرِكَ فى غير مُخادَعَةٍ ولا تضليل .

ــ مَعَاذَ الله ... حاشاَ وكَلاَّ .

فعاجَلَنِى بقوله :

لا تقاطِعْنى من فضلك ... عليك أن تقولَ الحقَّ ،

كلَّ الحقِّ ، ولا شيءَ غيرَ الحقِّ ... أَوَعَيْتَ ما أُريدُ ؟...

— وعيتُه تمامَ الوَعْيِ يا سيدي « الميجر » !...

واستوى فى جِلْسَتِه منتفخاً مُسْتَذْيِكاً ، ثم شَرَع يُلقِي عليَّ فَيْضَ أسئِلتِه ؛ كأنه قاضِي تحقيقٍ ، شديدُ المِرَاسِ ، يُسائل متَّهَماً تُثقِلهُ الخَطَايا ، وتتكالَبُ حولَه الرِّيَبُ ... وأعترف أنَّ من أسئلتِه ما كانَ مَنطقِياً يُوحِي به العقلُ والعاطفةُ ، على أن الجانبَ الأكبرَ من تلك الأسئلةِ كان موسُوما بالتفاهَةِ والطُّفُولِيَّة . ولقد صُغْتُ له إجاباتى مُبَرْقَشَةً ، مهوَّشَةً فى لَهجةِ تَفْخيمٍ وتهويل . فلم أَدَعْ شيئاً مما يُحبُّه إلا أثبَتُّه لنفسِي . ولم أَدَعْ شيئاً مما يَكرهُ إلا نفيتُه عنى ، فنَهَض يحتضِنُنى ويقبِّلُنِي وهو يكرِّر :

شَدَّ ما أنا فخورٌ بك يا دكتور « فهيم » ... ذلكَ كان ظنِّى بكَ وأملِى فيكَ ... إن فِرَاستِي لا تُخطيء ،

وإن ألْمَغيّتي لا تَخِيبُ !...

ووجدْتُنى على الفَوْر أقول :

والآن أليس من حَقِّي أن أستوضح منك بعض ما يتعلقُ بحياتك وعكانَتكَ الاجتماعيةِ ، بوصفِك والِد « مخطوبتى » ؟...

فتصايَحَ وهو يضربُ رُكبتَه بيدِه :

حُبًّا وكَرامة .

وَلَمْ يُمْهِلْنِى حتى أسألَ ، وإنما أسرعَ يَرْوِى فى حرارة وتحمُّس ، مغامراتِه الحربيةَ ، فكأنى أصغى إلى شاعر من شعراء « الرَّبَابَة » وهو يَرْوِى مُنشِداً مغامرات « أبِي زيدٍ الهلالى » ، و « الزِّناتِيٌّ خليفةَ » .

وما إنْ أتمَّ حديثه حتى نهضْتُ إليه محتضناً مقبِّلاً وأنا أُكرِّر :

شــد ما أنا فخورٌ بكَ يا سيدى « الميجر » ... يا لك من فارسٍ مِغْوَارٍ !...

وأقبلتْ « بهيـــــةُ » فى تلك اللحظةِ ، فقالتْ متضاحكةً :

ما هذا الوِئَامُ العجيب ؟...

فقال لها أبوها من فوره :

لا مانع عندى من زواجِك بالدكتور « فهيم » !... إنه طبيب عظيم !...

وتوخَّانِى بقوله :

الآنَ لا حرجَ عليكَ فى أنْ تُقبِّلها أمامِى قبلة الخِطْبَةِ ... قبــــلةً واحدةً فقط ... وليس لك أن تَزِيدَ !...

وقاربتُ خَطْوِى من « بهيـةَ » فى توقُّرٍ واتِّئَادٍ ، فألفيتُها قد أرخَتْ جفنَيْها من تخَاجُلٍ واستحياء ، فطبعتُ على جبينِها أولَ قبلةٍ عفيفةٍ خاطفةٍ !...

١٨

وفى أثناء جَلسَتِى إلى الجَد وابنتِهِ ، عرض الحديث للصبى « وفيقٍ » ، فقلتُ فى تَظرُّف :

كيف حالُ هذا العصفورِ اللطيفِ ؟...

فأجابتْنِى « بهيَّةُ » :

لقد ألمَّت به وَعْكَةٌ ، وهو مُلازِمٌ مَخْدَعَه ...

فانبَرى الجَدُّ يقول :

أيكون الدكتور فى منزلنا ولا يَفْحَصُ المريضَ ؟...

فقلتُ مبادراً :

إنى على أَتمِّ استِعداد .

ونهضنا جميعاً إلى مَخدع الغـلام ، فإذا هو على جانبِ السريرِ يلعب بالوَرَقِ مـــع ابنِ البوابِ ، فما إن رآنى حتى وقف مُقبِلا علىَّ ، وجعل يعتنِقُنى متهلّلَ الوَجْه ... فجذبتُ من جيْبِى قِرطَاساً فيه شُــكولٌ من الحَلْوَيَاتِ ، وناولتهُ إياه ، وأنا أقول :

هذا مسمُوحٌ به بأمرِ الطبيب .

فأسرعتْ « بهيةُ » تقول :

مسموحٌ بمقادِيرَ صغيرةٍ .

وقالت لابنِها فى لهجةٍ عليها مَسْحَةُ حَزْمٍ :

خذْ من القرطاس قطعةً واحـدة لنفسكَ ، وقدِّمْ لنا ما تجودُ به مما يَبقَى .

فأطاعَ الغلامُ ، وطفِقَ يوزِّعُ علينا الحَلْوَى .

وأجلسْتهُ على ركبتَىَّ ، وأنا أجرى عليـه الفحصَ

الطبيَّ المَوْهوم . ولم ألْبَثْ أن داعبتُ خدَّه قائلا :

أنت فتًى مدلَّلٌ ... والدتك بالغـةُ العنايةِ بكَ ... هذا هو مَرَضُك !...

فانبَثَق صوتُ الجَدِّ يقول ، وهو يحاولُ أن يسمُوَ بهامته ويتطاوَلَ :

ذلكَ رأْيِي أَنَا أيضاً .

وواصلتُ قولى للغُلام :

والآن أَتِمَّ لُعبةَ الورق مع صاحبِك ...

فصاحَ « وفيق » :

أريد أن ألعبَ مع جَدِّى لُعبةَ الـكمِينِ .

فقالت أمُّه فى صرَامَةٍ :

أما اليوَم فـلا ... هـذه اللُّعبةُ متعِبَةٌ ... يستطيعُ جدُّكَ أن يمثِّلَها أمامَك مع صاحبكَ « عثْمَانَ » .

فعلا صوتُ الغلام بقوله :

نعم !... نعم !... جَدِّى يمثلها أمامِى مع « عثمانَ » ... ولـكنْ يجبُ أن يشتركَ فى التمثيلِ الدكتورُ ، وكذلكِ أنتِ يا « ماما » !...

فقالتْ أمه :

أنا ؟... مستحيل ...!

فقلتُ على الفور :

ليس هنـاك مستحيل ... يجبُ أنْ نشتركَ جميعاً فى التمثيلِ أمامَ « وفيقٍ » مَرْضاَةً له .

وطفقَ الغُلام يردِّدُ :

نعم ... نعم ... كُلُّـكم تشتركونَ فى اللعبِ .

وما عَتَّم أن قفزَ متعلقًا بعُنُقِ أُمِّه يحاصِرُها بقُبُلاته الجامِحَة ، فلم تَمِلكْ « بهيةُ » إلا أنَ تُذْعِنَ

ومَضى الجَـدُّ ، وقـد خفَّتْ به حيويةٌ ونَشْطَة ، وما لَبثَ أن رجع مُحمَّلاً بعُدَّة التمثيلِ ، واختارُوا لى مـع ابنِ البوابِ دورَ « الفرقـة الإنجليزيةِ » التى نَصَبَ لهـا « الميجرُ عبد الله بك » كمينَه الجبَّارَ ... وما أسرَعَ أن اتخذْنا على رُءوسنا الطَّراطِيرَ ، وعلقْنا فى أوسـاطِنا سُيوفاً من الصفيـح ... وبدأنا التمثيلَ تحت إشرافِ « وفيق » .

ورأيت « بهيةَ » تُقبِلُ على اللَّعِبِ ، مرحةً ، تحاولُ جُهد الإمـكان أن تُفيضَ على ابنِهـا بهجةً ومسَرَّة ... وأخيراً وقعت « الفرقةُ الإنجليزية » فى الشَّرَكـ ، فانقض « الميجر » عليها بسيْفه يَـكيلُ لهـا الطعَنَاتِ الحاميةَ ... وارتجَّتِ الحجرةُ بالتَّصَايُحِ والدَّبْدَبَةِ ... وكادتْ تنبعثُ من حلق صيحةُ استغاثة تُنجينى من ضَرَبَاتِ « الميجر » المُتواليةِ ... وعَجِلَتْ إلىَّ « بهيةُ » فوقفت المذبحةُ ،

وأخرجتْنِي من تحتِ الأنقاضِ . وأنا فى حالٍ يُرْثَى لها ، وهى تقول :

انتهتِ الموقِعَةُ ... ليس أمامَ العدوِّ إلا التسليم !...

وتعالى الهُتَافُ والتصفيق .

وكان خِتامُ المشهد أن مَثَلْنا جميعاً فى الصف أمامَ « الميجر » ومعنا « بهيةُ » ورُحْنَا نُنْشِد :

مصر العزيزةُ لى وطنْ
وهى الحِمَى وهى السَّكَنْ
وهى الفريدةُ فى الزمنْ
وجميعُ ما فيها حسنْ . . .

ثم انثَنَيْنا نؤدى التحيةَ العريضةَ للبطل المِغْوار ، وتلقيْنا منه أَمْرَ الانصراف .

وقبْلَ مبارحتِيَ الدارَ ، و« بهيةُ » بالباب تودِّعُنِي ،

قالتْ لى مُشفِقةً :

لقد أثقلُوا عليكَ !... لقد ضايقوكَ !...

فقلتُ على الفور ، وصوتِى ينِمُّ عن إخلاصٍ مَكِينٍ :

كل ما يكفُل البهجَة والأنسَ « لوفيقٍ » وأمِّه يسعدُنى أيَّما إسعادٍ ...

لقد أتحتُم لىَ الفرصةَ كي أستعيدَ أيامَ الطفولةِ بما فيها من عربدَةٍ وصخَب .

فأقبلتْ علىَّ تضغطُ يدى وتقول .

أنت طيبُ القلب يا « فهيم » !...

— إنى محبٌّ ... عاشقٌ ... ولهانٌ ...!

فاستنارَ وجهُها ، ومثلْنا لحظَاتٍ تتجاذَبُ نظراتِ شغفٍ وهُيَام ... وإذا هى تميل على أُذُنى هامسةً :

إن « نواعم » تنتظرُكَ بعد غدٍ .

فهينَمْتُ فى شَغَفٍ :

سأطيرُ إليها بجسْمِي وقَلْبِي معا ...!

١٩

وقَسّمْتُ وقتِي بين زيارةِ « نواعمَ » الغانيةِ الطروبِ ، وزيارةِ مخطوبَتِي « بهيةَ » مثالِ الحشمةِ والعَفافِ !!...

وكنتُ أتخذُ لكل من الزيارتَيْن ما يلائمهما ، فأصبحتْ لى ـ أنا أيضاً ـ فى الحياة شخصيتانِ متَميِّزتان : إحداهما تُناقِضُ الأخرى تمامَ المُناقضةِ . . . والذى أدْهَشَنِى أنَّنِي لم أحسَّ فى الأمرِ من غرابةٍ أو شُذوذٍ ، بل لقدْ ألفيتُه يسايرُ المألوفَ من المشاعرِ الطبيعيةِ للسادةِ بنى البشَر ! . . .

لم أعدْ أرى ما يقتضِى الحيرةَ أو العجَبَ فى الحياتيْنِ اللتينِ تحياهُمَا « صاحِبَتِى » بشخصيَّتِها ، على ما بينهُما

من تعارُض .

لقد استبان لى فى وضوح أَنه لا غُنْيَةَ لـكل امرئ في دنياهُ عن قِناَعَيْنِ ، يختلف كل منهما عن الآخر أشـدَّ اختلاف ، عرف المرء ذلك من نفســه أو لَمْ يعرفْ . وإِنه ليتخذُ هذيْن القناعَينِ ، وَفقْـاً لطبيعةِ الفِطرة من ناحيةٍ ، وطَوْعاً لمُقتَضَيات الأحوالِ والمُلابِسات من ناحيةٍ أخرى .

اصبحتُ « رفيقا رسميًا » « لِنواعمَ » ، أحملُ فى جيبى مفتاحَ شِقتها الخاصة ، وأحضُر فى الموعدِ الذى أختارُ ، وأقضِى معها من الوقتِ ما أشاء ، وأجلبُ للدار مَئُونَتَها من بُن وسكر وصابون ، وأُؤَدى أجرةَ المسكن فى مطلعِ الشهر . . . كل هذا وَفْقُ ما ترسُمه لى ، وما تُمليه علىَّ . . . كل هذا بحسَبِ ما تُعطينى من مال !...

كنتُ أحيا معها ، بشخصيَّةِ الخليلِ ، حيـاةَ عَرْبَدَة

ومُجُونٍ ، نستبيحُ من مَلَذَّاتِ الحبِّ ومَعَابِثِهِ ما لا يَخْطِرُ ببالٍ .

ورأيْتُنِي ، كلما توثقت عِلاقتِي بها على هذا النحو ازددتُ من كَلَفٍ وَتولُّهٍ ... كلما عَبَبْتُ من الكأسِ المُتْرَعَةِ لأطفِئ النار الواريَةَ من بين ضلوعي ، ازدادَ القلبُ من تضرُّمٍ وحنين ...!

كذلك أصبحتُ « خاطبا رسميًّا » « لبهيةَ » أَقضِي معها سويعاتٍ هانئةً ، حافلةً بالمُتَعِ الصافيةِ ، مُتَعِ الحُبِّ العُذْرِيِّ الطَّهُورِ !...

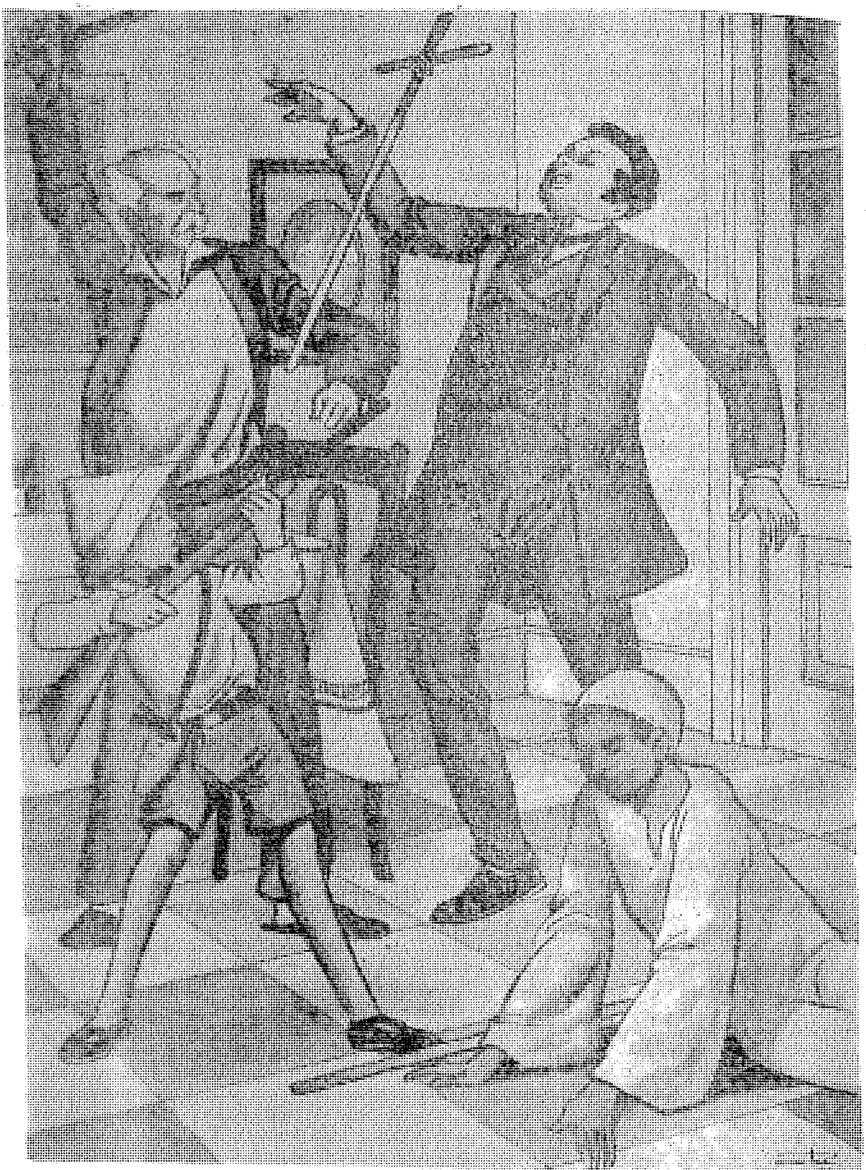
وأَحبَّنِي « وفيقٌ » وأَحبَبْتهُ ، وارتفعتْ بيننا الكُلْفَةُ ، فغدوتُ كأنني فى الأسرة عضوٌ أَصيل . وأَخذ يدعُونِي بعمِّي الدكتور . وكنتُ أُمضِي الوقتَ أُلاعِبُه ، وأَقصُّ عليه المسامراتِ والأفاكِيهَ ، وأُطارحُه الأحَاجيَّ والألغازَ ، فيعلُو بضحكاتِهِ الفتيَّةِ ، المُجَلْجِلة تمثلُ

فيها سذاجةُ الطفولةِ وفَوْرَةُ الحياةِ .

أما « الميجر عبد الله بك » فإنه يلقانى مُرَحِّباً بى ، ويحيِّينى بمقطوعاته الشِّعريةِ المستَظْرَفَة ، ويخصُّنى بسَرْدِ مغامراتهِ الحربيةِ التى لا تنتهى ... فــلا يجدُ منى إلا أُذُناً صاغيةً ؛ ولساناً يمجِّدُ بطولتَه الخالدةَ .

ولطالما زجَّنِى مع صِبْيانهِ أَشْرَكُهم فى مظاهَراتِهم الصاخبةِ ، وألعبُ معهم « لُعبَةَ الـكمين » ؛ إذ بَرَعْتُ أنا وابنُ البواب ، فى تمثيلِ دورِ « الفرقة الإنجليزية » التى تشقَ دائماً بمصيرِها المشْئُوم .

وقد أفلحتُ فى دفعِ « بَهِيَة » إلى أن تقاسِمَنَا ألاعيبَنا تلك ، فكانت تلازِمُ ولَدَها ، تحملُ معه الأعلامَ الوطنيةَ وتُنشِدُ الأناشيدَ المتحمِّسَةَ ، وتردِّدُ الهُتافاتِ المختلفةَ بحياةِ مصرَ وحريتِها وانتصارِها الوشيك .



ألعب معهم « لعبة الكمين » إذ برعت أنا وابن البواب ، فى تمثيل دور « الفرقة الانجليزية » التى تشق دائماً بمصيرها المشئوم !...

وكادَ ينتهي بها المَطافُ إلى أن تترامى على المُتَّكأ ،
وقد ضمت ولدَها إلى صدرِها تقبِّلُه ، وهي تُكَرْكِرُ
بالضَّحكاتِ ، ومحيَّاها متضرجٌ يلتمعُ بالحيوية والاهْتِيَاجِ .

٢٠

مرت عِجَالاً أشهرُ الصيف ، وانتهتْ تلك الإجازةُ السنويةُ ، التى نَنْعمُ فيها بالراحةِ والبَهْجةِ والإنْطِلاَقِ .

ها قد حانَ موعدُ أوْبتى إلى القـاهرة ، حيث أستقبلُ مألوفَ حياتى ، فى دارى ، مع أسرتى ، وأستأنف ما هو مفروضٌ علىَّ من درْس واستذكار .

ودَّعتُ « نواعمَ » خليلتى الغانيةَ ، وفي القلبِ ما فيه من وَجْدٍ وَالْتِيَاع . وكذلك ودَّعتُ « بهية » ، مخطوبتى ، ربةَ الصَّوْنِ والعفافِ ، وابنَهاَ « وفيقاً » الغـلامَ الحُلوَ الظَّريفَ ، وأبَاَها « الميجر عبد الله بك » ، رمزَ البطولةِ

فى عالمِ الخَيالاتِ والأوْهَام .

ودَّعْتُ حياتى فى المَصِيفِ بشِقَّيْها فودعتُ معها صفوَ العيشِ وما فيه من رَوْحٍ ورَيْحَانٍ .

بَيْدَ أنَّ خاطِرةً سنَحتْ لى ، فأنِسْتُ بها غايةَ الأُنس ، وسُرعانَ ما استبدَّتْ بفكرِى أجمعَ ؛ إذْ بنيتُ العزم على ألاَّ يطولَ أمدُ مغيبِى عن الثَّغرِ . سوف لا أقضى فى العاصمةِ من الوقتِ إلا ريثما أمهِّدُ أمرى وأُعِدُّ عُدتى للنَّقْلَةِ إلى الإسكندرية ، فأجعلُها لِى مستقَراً ومُقَاما .

على أنى لم أكدْ أصلُ إلى القاهرة حتى استقبلتْنى حياتِىَ المعهودَةُ ، بأنظمتِها الراتبَةِ ، وعَمَلِها الجارفِ ، والتزاماتِهَا المُتشابِكةِ ، فصدَّتْنِي عن إِنْفَاذِ رغبتى كلَّ الصَّدِّ ، وإن ظلَّ الأملُ يُغادِينى ويُرَاوِحُنى بين حينٍ وحينٍ ؛ لِأحققَ حُلْمِىَ الجميلَ فى مَوْعِدٍ قريب .

وفى بُكرةِ يوم ، وصحيفةُ الصباح بين يدىَّ ،

أقلِّبُ النظرَ بين صفحاتها العِراض ، عَلِقت عيني بصورةٍ على رأسِ أنبـاء الوَفيَاتِ ، وإذا أنا تصيبُني رِعْـدةٌ ، وإذا يدى تتراخَى حتى تهاوَتْ عنها الصفحةُ ، وإذا بصرى قد سَدَرَ وكأنَّما انسَدَلَتْ عليه غاشِيةٌ .

وانحنيْتُ ألتقِـطُ الصحِيفةَ ، وطفِقْتُ أُنعِم النَّظرَ فى الصورةِ ، وأتفحصُ ما لها من سِمَاتٍ ، فلمَ يزِدْنى إنعامُ النظر ، ولا فرطُ التفحُّص إلا يقيناً .

هاتان العينانِ الضيقَتَانِ ، وما تتميَّزَانِ به من خَدَرٍ ونعاسٍ . هما ، هما ... إنهما تتحدثان إلىَّ فى تلك اللحظةِ بأن صاحبَهما الصغيرَ قد غدَا فى ذِمَّة المَنُون ، ولم يعُدْ له فى دنيانا من نَصيبٍ !...

وتخاذلتْ أوصالى ، وأنا أحِسُّ كأن وحْشاً ضارياً جثَمَ على صدرى يُوشكُ أن يُزهِقَ مِنِّىَ الأنفاسَ ...

يا لَهذا الحادثِ الجَلَلِ ... ما أسوأَ وَقْعَهُ على قلب

تلك الأمّ الرءوم !... أية فجيعة تلك التى خبأها القدر ، ورمى بها تلك الأسرةَ الآمنةَ المطمئنةَ ؟... هذا الصبيُّ الأنيسُ ، هذا العصفورُ المَرِحُ ، هذه الفَوْرَةُ من الحيويَّةِ الناضِرَةِ ، كيف يصبح ذلك كلُّه بين عشيَّةٍ وضحاها خبراً من الأخبار ، كأن لم يكن بالأمسِ ملْءَ الأسماعِ والأبصار ؟...

نهضتُ إلى المحطة ، ليُقِلَّنى أولُ قطار إلى الثغر .

وتثاقلتْ الساعاتُ فى مَرِّها ، على الرغم من سرعة القطارِ ، وأنا فى دوامةٍ من شُجون وآلام .

وما إنْ بلغتُ محطة الإسكندرية حتى تقافزتُ إلى الميدان . ومن ثَمَّ سلكتُ السبيل إلى المبَنى الذى تسكنُ فيه « بهية » ، وما كدتُ أقاربُه حتى استشعرْتُ تهيُّباً ورَهْبة ، وتقاصَرَتْ خُطاى ، وألفيتُنى أرتَدُّ على عَقِبِى هرَبًا .

لبثتُ هائماً على وجهِي وقتاً فى جَنَبَات الميدان ،
لا أنا بقادر على أن أُجاوِزَ تلك المِنْطَقَةَ ، ولا أنا بقادرٍ على
الدُّنُوِّ من دار الأحزان .

وصك سمعِي صوتٌ ينادينِي فى اهتياجِ ، ولم يكن
الصوتُ غريباً عنى فالتفتُّ إليه ، فوقع بصرى على الغُلامِ
« عثمان » ابنِ البوابِ . . . رأيته يُهْرَعُ إلىَّ وهو يتصايحُ
قائلا :

ألا تعلَمُ ؟ . . . « وفيق » مات . . . عساكر الإنجليز
ضربُوه بالرَّصاص . . .

فاختلجَتْ أوصالِي وأمسكتُ بكتفيْهِ أهزُّهُماَ
وأنا أُردِّدُ :

الرصاص ؟... كلام فارغ ... ما « لوفيقٍ » وعساكر
الإنجليز .

فعَلا بصوْته يقول :

لم أكذبْ ، واللهِ العظيم ... ضربُوه بالرَّصاص ...!

ومكثتُ قُبالتَه ، أعاوِد إليه النظر ، وأنا فى دهشة غامرة ، وألفيتُنى أقول فى ذُهول :

متى ؟... متى حدثَ ذلك ؟...

— منذ أيام ... أيام ...

وجذبتُه من يده وانتبذْتُ به مكانا خاليا من الميدان الفَيَّاح ، وأقبلتُ عليه أسائلُهُ :

كيف وقع هذا الحادث ؟...

فبدا على وجهِه اهتمامٌ واتخذ سَمْتَ الراوى الحَصِيف ، وتهيَّأَ بكلتاَ يديْه وكتفيه لِكَىْ يؤدِّىَ تلكَ المهمةَ ذاتَ الشأن ، مهمةَ الإفضاء بما جَرَى فى تفصيلٍ ومحاكاةٍ وتصويرٍ . وانطلقَ يتكلمُ فى عجلَةٍ وتحمُّسٍ ، وهو مبهورُ الأنفاس ، مُهَوَّشُ الألفاظ ، فلم أفهمْ منه إلا النَّزْرَ اليسيرَ . فصرفتُه

عنى فى رفق وتحنُّنٍ ، وشرعتُ أتنقل بين المَتَاجر المجاورَةِ للدار ، أستقى من هنا وهناكَ ، أشتاتَ الأحاديثِ والأخبار عن مصرَع الغلام ، وكان بوابُ الدار آخِرَ من جلستُ إليه أتعرف ، واستطعتُ بعد لَأْيٍ أن أَصورَ لنفسى ما حدث على النحو الآتى :

كان مصرعُ الغلام قبلَ عَشَرةِ أيام ، ولكن « الرقيبَ » لم يأْذَنْ فى نشر النَّعْيِ فى حينه ... ومنشأُ الحادث أن « الجَدَّ » أعنى « عبد الله بك » قد نظَّمَ مظاهرةً فى شِقَّتِه على غِرَارِ تلك المظاهراتِ المنزليةِ المعتادةِ ، بيدَ أَنْ غِلْمَاناً جُدُداً من أهل الحى كانوا قد انضمُّوا إلى زمرَةِ « وفيق » وهم أكبرُ سنا وأكثرُ جرأةً ، فخرجوا بالمظاهرة من الشُّقَّةِ إلى الشارع ، وحاولتْ أمُّ « وفيقٍ » أن تحولَ بينهم وبينَ الخروجِ فلم تستطعْ إلى ذلك سبيلا ... ولما تراءتْ المظاهرةُ فى الميدان

اجتذبتْ إليها أَعينَ الناس ، فتسارع إليها السابلةُ يشتركون فيها زرافاتٍ . واعتلى « وفيقُ » كتِفَيْ شابٍّ فارعِ القامةِ متينِ البنيانِ ، وكان « وفيق » يمسكُ بيدهِ العلَمَ المصريَّ الأصيلَ « علمَ الاستقلال » وهو يخفُق يمْنَةً ويَسْرةً فيهزُّ النفوسَ معه غَيْرَةً وحَمِيَّةً ... وفى ذلك الحين برزتْ كتيبةٌ عسكريةٌ من تلك الكتائبِ الإنجليزيةِ التى دأبتْ على التَّطْوافِ فى الشوارعِ للاستطلاع ، فانبرتْ للمظاهرة تُطلِقُ عليها قذائفَ الرَّصاصِ ، وأصابتِ الغلامَ إحدَى الطَّلَقَاتِ ، فهوَى مضرَّجاً بدمِه ، والعلَمُ من فوقِه يجلِّلُه ، وما هى إلا أن هرولَتِ الأمُّ إلى ابنهـا تحملُه جثةً هامدةً إلى الدار ، وهي مُوَلْوِلَةٌ تنوح ... وأَما « الجَد » فما كاد ينمى إليه النَّبَأ ، حتى اشتدتْ به اللوثةُ ، واندفعَ من الشِّقة فى حَنَقٍ واختلاطٍ ، وهو يقسِم ليَنتَقِمَنَّ لحفيـده من قاتليِهِ ... على أن ساقَيْه خذَلَتاه فتساقطَ على الدَّرَجِ ،



هرولت الأم إلى ابنها تحمله جثة هامدة ... وهى مولولة تنوح

وكان ذلك آخرَ عهدِهِ بالحياة ... وأما الأُمُّ فلم تستطعْ بقاءً في هــذه الدار ، بعد ذلك اليوم الفاجعِ الأليمِ ، فهجرتِ الشِّقَّةَ إلى غير رَجْعَةٍ ، وارتحلتْ إلى حيث لايدرى أَحد !...

٢١

لبثتُ فى الثغر بِضعةَ أيام أَجِدُّ فى البحث عن « بهية » ، وأتقَصَّى خبَرها ، هنا وهناك ، ولم أُحْجِمْ عن زيارة مسكنِها فى تلك الحارةِ المُرِيبَة ، فعلمتُ من ربةِّ الدار أنَ « نوَاعِمَ » قد تخَلتْ عن الشَّقة ، ولم يعد لها عِلاقةٌ بها . وأن غانِيَةً أخرى حلَّتْ فيها محلَّها .

وبعد جُهد جَهِيد عرفتُ أينَ تُقيم . إنها تسكن شِقَّةً متواضعةً فى شارع ينزوى عن العيونِ بحىِّ « محرم بك » فنحوْتُ نحوَه على عَجَل ، وقد تلهبَتْ نفسى حنيناً إليها ، وشَغَفاً بلقائها . وما فكرتُ لحظةً فيما يجب أن أقوله ساعةَ اللِّقاء ، فلم يكنْ ثَمَّةَ ما يشغَل بالى إلا أمرٌ واحد :

أن أراها .

وطرقْتُ الباب ..

وصافحَ سمعِي خفق أقدامٍ اشتدَّ له وجيبُ قلبي !...

وانفتحَ البابُ ، فإذا هي ماثلةٌ أمامي ، في لَبُوس الحِدَادِ ، وكان أول ما راعني منها صرامَةُ ملامِحِها على الرغم مما كسا وجهَها من ذُبُول وشُحُوبٍ .

وما إن تبيَّنَتْنِي حتى شَهَقتْ من المباغتَةِ ، وهي تُغمْغِمُ :

« فهيم » !... أنت ؟!...

فقلت :

لم أعلم بالفاجعةِ إلا منذُ أيام قِلالٍ ... قد ظَلَلْتُ منذ علمتُ ، أبحثُ عنك ... كان لابدَّ لي من لُقياك .

وفسَحَتْ ليَ الطريق ، فدخلتُ ...



وانعقد بيننا الصمت ... وكان صمتاً أشد اضطراباً وهيبة ..
من التصايح والضجيج !...

واحتوتنا حجرةٌ ضيقةٌ رطبةٌ ، فيها تشيعُ العَتْمَةُ .

وانعقد بيننا الصمتُ ... وكان صمتاً أشدَّ اضطرابا وهَيْجَةً من التصايُحِ والضَّجيجِ .

وما هي إلا أن قالتْ في لهجةٍ راعشةٍ ، وهي ترمي جانب الحجرة بالنظر والشرود :

لم أفقهْ شيئاً مما وقَع ... لا أدرى كيف ؟... لا أعلمُ لماذا ؟... لا أوقِنُ : أفي يقظة أنا حقاً أم ذاكَ حلمٌ فظيع ... ؟

وأخفتْ وجهها في كفَّيْها دفعةً واحدةً ، واستغرقَتْ في نَشيجٍ حَارٍّ ... فأرتج على ، ومكثْتُ هُنَيْهَةً لا أنبس ...

وألفيتُني أهَمْهِمُ ، وأنا أعتصرُ يدِيَ اعتصاراً :

خفِّفي عنكِ ... هذه إرادةُ الله ... لا نملك إلا التسليمَ بما هو مقدورٌ علينا نحنُ البشر ...

فسمتْ برأسِها ، والدمعُ على وجهِها يسبَحُ ، وقالتْ في صوت مختنِق :

لا ... لا أرضَى بما جرى ... أنا مظلومةٌ ، والله لا يرضَى الظلمَ لأحد .

فاقتربتُ منهــا أبغي أن آخذ بيدِها ، فتناءتْ عني ، وهي تقول في احتداد :

أخبرني ماذا يجبُ عليَّ أن أفعل ... إني على استعدادٍ لِأَنْ أقومَ بالمستحيل إذا أبلغَني ذلك مأربي من التَّشَفِّي والانتقام ... قلْ ... أوضِح ليَ الطريقَ ، فسأسْلُكه مهما كان وعْراً عويصاً ... أرْسُم لي خُطَّةَ العَمَلِ ... أنتَ من دُعَاةِ الوطنية ... قلبــك ينبضُ بالكَراهية لهؤلاء السفَّاحِينَ ... دُلَّني على وسيلةٍ تُبْلِغُني مُبْتَغايَ ... تكلم ... قُلْ ! ...

ونابَتْنِي رِعْدَةٌ ، وتحيرت الألفــاظُ على شَفَتَيَّ ...

وبعدَ لأْيٍ تَسَنَّى لِي أَنْ أقولَ :

أتوسلُ إليكِ أن تُشْفِقِي على نفسِك ... سنبحثُ الأمرَ معاً في هُدوءٍ .

فقالت وهي في حَنَقِها متماديةٌ :

أليس لديكَ من قوْل غير ما أسمعتَنى ... عجبتُ لكَ تطالبُنى بالهدوء وأنتَ أعلمُ الناس بحالى ... لقد صحَّ ما كنتُ أعتقدُه فيكم ... إنكم لستم جادِّين فى دعوتكم ... أنتم تُرسلون الكلامَ جُزَافاً ، ومتى حانُ وقتُ العمل أجفَلْتم وتخاذلْتُم ... لا أستطيعُ أَن أُعَوِّلَ عليك ... سأُعَوِّلُ على نفسِي وحدَها ، على نفسى أنا ...

وطفِقَتْ تدقُّ صدرَها بقبضَتَيْها أَعنفَ الدَّقِّ ، وهى تُعْوِلُ عَويلاً شديداً .

وملَكَنِي الأسى ، ونهضتُ إليها أُحاولُ جَهْدِي

أن أُهَدِّىءَ من ثائرتها ، متوسِّلا إليها أَن تستمعَ إلى ما أُسْدِي من نصُح مؤكِّداً صدقَ العزمِ على أَن أَكونَ لها فى مِحْنَتِها عَوْناً .

وسكنَ روعُها رويداً وقـد أَخلدتْ إلى صمتٍ ، واستبانَ فيها ضعفٌ وانهيارٌ .

٢٢

استأنفتْ صاحبتى الكلامَ فى صوتٍ مخفُوض :

أشكر لكَ هذه الزيارةَ ، وأعتذِرُ إليك مِمَّا بدَر منى .

— ليس المجالُ مجالَ اعتذار ... كلُّ ما أرجوهُ منكِ أن تملكِى زِمامَ نفسِك . وإنِّى طوعُ أمرِك فى كل ما تُريدِينَنى عليه .

وتناولتُ يدَها أربتُها فى تحنُّن ، وواصلتُ القولَ :

والآنَ ... ألا تَصِفينَ لى كيف تَحْيَيْن ؟...

فقالتْ فى لهجةٍ مُستَضْعَفَة :

ليس فى حياتِىَ اليومَ ما يُثيرُ الاهتمامَ ... إنِّى أحيا

كما تَرى حياةَ وَحدةٍ واعتِكافٍ ... لا جديدَ عندى ...
يتشَابَهُ يومِى وأَمْسِى . . وليس لِى من غَدٍ أرجوه ...
فأما الماضى فَلِى منه أَلِيمُ الذِّكرياتِ ...

وغضّتْ من بصرِها وقد انثنَتْ علَى ثوبِها تعبَثُ بأطرافِهِ وهى تُهَمْهِم :

لم يعُدْ « لِنَواعمَ » فى الوقتِ الحاضرِ من وُجودٍ ... لقد اختفتْ إلى الأبدِ ... وكذلك « بهية » ... رحَلَتْ برحيل أسرتها عن دنيانا الراهِنةِ إلى العالم البعيد .

ورفعتْ رأسَها تواجِهُنى بقولها :

أنا الآنَ : « أشْجَانُ » ...

فهينَمْتُ :

« أشْجَان » ؟!...

— ذلكَ هو الاِسمُ الذى اخترْتُه لنفسى فى حياتِى

التى أحياها اليومَ .

ولم تَزِدْ على ذلكَ شيئاً .

وأظلّتْنَا سَحَابةُ صَمْتٍ ، وما هى إلا أن توارَدَتْ على مُخَيِّلَتى مشاهدُ من حياتيْها السالفَتَيْن : حياةِ « نواعمَ » وحياةِ « بهيَّة » ، وتراءتْ لى صورَتِى بين هذه المشاهدِ ، تُدامِجُها دونَ انفِصام .

لقـد كانت تربطُنى بصاحبتى ذاتِ الشخصيتَيْن المُتبايِنَتَيْن ، عاطفةٌ قويةٌ ، راسخةُ الجذورِ ، تجعلُ من شخصَيْنا وَحْدَةً وثيقةً عُرَاها .

وعدَلَ بِىَ الخاطرُ إلى «أَشْجَانَ» أحاولُ أن أخطِّطَ لها « صورةً » فى وضعها الجديد : كيف تحيَا ؟... كيف تُغالِبُ الصِّعابَ من حوْلها ؟... ماذا عسى أن يكونَ موقفى منها ؟... إن « أَشْجانَ » في نظرى « مولُودٌ » سوَّتْهُ أحداثٌ قاسيةٌ ، ظـالمةٌ ، ورمتْ به في صحراءَ قاحلةٍ ماحِلةٍ ،

فما كما ينمو عشبٌ ألحَّ عليه الضمُور ، وأضَرَّ به الجَفَافُ ، ما أظمأهُ إلى قَطَراتٍ من ماءٍ يَبُل بها صَدَاه ، ويستمِدُّ منها الحَيويَّة والازْدهارَ ، فلِمَ لا أكونَ أنا هذهِ القطراتِ التي تمنَحُها الرِّيَّ والترَعْرُعَ من جديد ؟!...

وأشرعتُ إليها بصرى وقلتُ :

لقد حدَّثتِنى أن أُسرَتِكَ رحلتْ عن هذه الدنيا ، ولم يبق منها أحد ، وغاب عن بالكِ أن تذكُرِى شخصاً يَعُدُّ نفسه عضواً أصيلاً من أعضاء هذه الأسرةِ ، وما زال حيًّا يُرزَق ، غايةُ مُناهُ أن يكونَ مِعْوانا لكِ فى الحياة ، وأن تُنْزِليه من نفسكِ منزلةَ الصديقِ الوفىِّ الأمين ، تثقين به ، وتُعوِّلِينَ عليه .

ونظرتْ إلىَّ بعينين مخضلَّتَيْنِ ، وقالتْ :

أشكر لكَ شعوركَ الطيبَ نحوى يا « فهيم »...

وأقدر إخلاصَك ووفاءك ... بيد أنى مُشفِقةٌ عليك ... إنى امرأَةٌ ضائعةٌ ، ولن تستطيعَ أَن تفعلَ من أجلى شيئاً !...

— أَستطيعُ أَن أَفعلَ الكثير ، إذا رأَيتُ منكِ استجابةً ومؤازرَة .

— وما الذى أنت تعتزمه ؟...

— أُحاولُ أَن أَخرج بكِ من مَحبِسِكِ هذا إلى الحياةِ والنور .

— لقد وهبتُ حياتِي لذكرى ولدى ، وإِنى لأَحيَا بهذِه الذكرى ، لا أَبتغِي بها بَدِيلاً .

— من أَجل هذِه الذكرى يجبُ أَنْ تعرِفى واجبَكِ نحو نفسِك ، ونحوَ الحياةِ من حولِكِ . لن تستطِيعى أَن تمجِّدِى ذكرى ولَدِكِ على الوجهِ الصحيح إلا إِذا أَقبلتِ

على الحياةِ تُصَاوِلينَها وتُغَالِبِينَها ، ما وَسِعَكِ أَن تفْعَلى .

وبعدَ سـكتَةٍ قصيرةٍ استأنفْتُ القولَ فى حزم وتوكيد :

من أجلِ ولدكِ يجبُ ألاَ ترْكَنِي إلى اليأس !...

٢٣

قلتُ « لأشجانَ » :

أتسمحِينَ لى أن أستوْضِحَ منكِ بعضَ أمورٍ تتعلقُ بحياتكِ ؟...

— سَلْ ما بدا لكَ !...

— ألديك موردُ رزقٍ تُنفقينَ منه ؟...

— عندى مُدَّخَرٌ من المال يكفينِى ... إنى أقنعُ اليومَ بالقليل .

— لماذا لا تُزاولِينَ عملا مُجدِياً يُدِرُّ عليكِ ربحًا ؟...

— لا طاقةَ لي بعملٍ ...

— أذكرُ قولَكِ لى فيما مضى إنكِ تُجيدينَ فنَّ تفصيلِ الملابس وحياكَتِها ، فلماذا لا تستغِلِّينَ هـذه الـكفايةَ والخبرةَ في عمل يَشغَلُ الوقت ويُـكسِبُ المال ؟...

— أتُريدُنِي على أن أتَّخِذَ الحياكَةَ مِهْنَةً لى ؟...

— أطمع فى أكثرَ من ذلكِ ... أن تُنْشِئى « مشغلا » يتعلم فيه الصَّبايَاَ الصغيراتُ فنَّ التفصيلِ والحيـاكَةِ ، ستكونين أنتِ رئيسةَ « المشغَل » ، وستُشرفينَ على تَنْشِئةِ هؤلاء الصَّبايَاَ ليتعلَّمْنَ كيف يكسِبْنَ عيشهُنَّ فى الحياة ... ما أجزلَ ثوابَكِ عندَ الله بهـذا العملِ الكريم !!...

فشردَتْ نظراتُها لحظَاتٍ ثم همْهَمَتْ :

لا أجدُ فى نفسى هوًى لِمثـلِ هذا العملِ ، لا طاقةَ لى بِهِ ، ولا صبرَ لِي عليه .

واستكملْتُ حديثِي أقولُ :

إنى على استعدادٍ للعمل معكِ فى هـذا « المشغل » ... سأكونَ شريكا لكِ ... من يَدْرِى ؟... ربمـــا صادَفنَا النجاحُ ، فيكبَرَ « المشغل » ويكونُ فى الغدِ القريبِ معهداً ذا شأن .

أنت تَبْنِي آمالَك على الأوهامِ .

فألفيتُنى أُتابعُ قولى فى تحمُّس :

ولسوف نُسمِّى « المشغَل » ، « مشغلَ وفيق للحِياكة والتفصيل » !...

فأشرعت إلىَّ عينيْها وقد اتسَعَتْ حدَقتاهُمَا ، وطفِقَتْ تردِّدُ :

« مشغل وفيق للحِياكة والتفصيل » ..!

— وسنضَعُ صورة مكبرةً « لوفيق » فى صَدرِ القاعةِ الكُبرى ، من دارِ « المشغَل » يراها كل زائرٍ حينَ يقدَمُ

وحينَ ينصرفُ .

وظلَّ بصرُها عالقاً بوجهي ، يسألُني المزيدَ ، فانطلقتُ أقول :

سيعمُرُ « المشغلُ » بهذا النّشْءِ الصغيرِ ، وسنكون له معاً بمثابةِ أبوينِ يتعهدانه بالرعايةِ والحبِّ والحنَان .

وانفَسحَ لي مجالُ القول ، وصاحبَتي مصغيةٌ لحديثي تتلقّاه في تشوُّفٍ وشغفٍ ، وإذا أنا أصِفُ لها المشغلَ وحُجُراتِه ، ونظامَ العملِ فيه ، وحفلاتِ الشاى التي نقيمُها حفاوةً بمن يفِدُون عليه للزيارةِ والتعارُف . وفي هذهِ الحفَلاتِ تمثِّلُ صبايا المشغلِ قِصصَ المقاومَةِ الشعبيةِ ، والترصُّدِ للأعداءِ ، وينْشِدْنَ أناشيدَ الوطنيةِ التي تتجلَّى فيها روحُ البطولةِ والفِداء ...

ورأيتُها تسرِّحُ نظرَها كأنما تستعيدُ ذِكرياتٍ عزيزةً مِنَ الماضى الشَّجِيِّ ، وقالتْ حالمَةَ اللهجةِ ، مختلجةَ الشَّفتَيْنِ :

البطولَة ... المُقاومَة الشعبية ... الكمين ... «وفيق»!...

ثم نهضَت فى هدوءِ وغابتْ بعضَ حِينٍ .

ثم رجعتْ وبينَ يديْها صورةٌ مكبرةٌ لولدِها ، يَزينُها إطارٌ ثمينٌ ، وقالتْ وهى ترنُو إلى الصورَةِ تتملاَّها فى تحبُّبٍ :

ألا ترَاها صالحةً لِتَزْدانَ بهاَ القاعةُ الكُبْرَى ...؟

٢٤

صار كلُّ شيءٍ كما كنتُ أرجُو.

وانتقلتْ « أشجانُ » إلى دارٍ أُخرى ، من دُورِ الحيِّ نفسِه ، فيها سَعَةٌ ، وعليها رَوْنَق ... دارٌ تُحيطُ بها حديقةٌ صغيرةٌ مَأْنُوسَةٌ ، وقد جعَلَتْ صاحبتِي من هذهِ الدار الجديدةِ مُسكناً لها ومَقَراً للمشغَل .

وعكفنا نحنُ الاثنانِ على إعدادِ المشغَل إعداداً يفى بحاجةِ عامِلاتِه ، وكنا نُعْنَى بالحديقةِ ، نُحسِنُ تنسيقَها ، ونستَنْبِتُ فيها طرائفَ الأزاهِيرِ .

وكانتْ « أشجانُ » تستقبلُ عملَها الجديدَ فى حفاوةٍ وجِدٍّ ، وقد أخذتْ جَهامتُها تنقشعُ ، وانطواؤُها على نفسِها

يتزَايلُ ، واستعادَ مُحيَّاها بعضَ إشراقِه القديم .

وكنَّا فى سويعاتِ الفراغ نخرجُ إلى الحقول المجاورَةِ نستروِحُ ، آخذين فى حديثٍ فَضْفَاضٍ يتَّصِلُ بالمَشْغَلِ ورُوَّادِه ، وَبَرْنَامَجِ نشـاطِه . وكنتُ أستفيضُ فى الحديثِ عن حياتِها المُسْتَقْبَلَةِ ، أحاولُ أَنْ أبْنِيَهَا على أساسٍ قويم ، وأن أصُوغَهَـا فى نَمُوذَجٍ رفيعٍ . وكان يسعِدُنِى أن أَلَمسَ منها حسنَ استعدادٍ لتطويرِ حياتِها ، والعُدولِ بها إلى سلوكٍ فاضلٍ مُثْمرٍ ، فقدْ حمَلَتْ «أشجانُ» فى قَرَارةِ نفسِها بُذُوراً كريمةَ القِيَمِ الإنسَانيَّةِ ، لا تلبثُ أن تَنْمُوَ وتَتَرعرعَ .

وأحسستُ منها شوقاً إلى الارْتِوَاء من منهَل المعرفةِ ، وبخاصَّةٍ ما كان متعلِّقاً بتاريخِ البُطولة ، وأمجادِ الوطنِ ، فكأنما تحاولُ أن تستبدِلَ بأساطيرِ أبِيهَـا وأوهامِه التى كانتْ تعمرُ رأسَها على كُرْهٍ منهَا ؛ ـ حقائقَ مفيدةً من التاريخِ تَطْمَئِنُّ إليها وتأنسُ بها . فلم أكنْ أضِنُّ عليها

بما يَبلغُها الغايةَ التي ترُوم ، وانصرفتُ إلى الدرسِ والمطالعةِ ، أتزودُ ما وَسِعَنِي أن أتزَوّدَ لكَيْ أوافِيَهَا بالزُّبْدَةِ مما أُفِدْتُ .

بيد أنّ ظِلَالاً قاتمةً كانتْ تكسُو وجهَهَا آناً بعدَ آنٍ ، فيغشاهَا سُهُومٌ جيَّاشٌ ، لا تلبثُ على أثرِه أن تنطلقَ في اهتياجٍ ثائرٍ ، متحدثةً عن مصرعِ ولدِها ، ووجوبِ القيامِ بتدْبيرٍ حاسمٍ إزاءَ هؤلاءِ السفاحينَ الآثمينَ ، الذين انتَهَكُوا حُرْمَةَ الوطنِ ، واستباحُوا دِمَاءَ الأبرياءِ .

فكنتُ آخذُ بكفِّها وأشدُّ عليْها ، محبِّذاً قولَهَا الحَماسِيَّ ممجِّداً شعورَها الوطنيَّ ، فتحدجُنِي بنظرةٍ مُحْتَدِمَةٍ وهي تعَقِّبُ قائلةً :

أليسَ ثمةَ من خُطَّةٍ صريحةٍ تنصحُ لِي بإنفاذِها ؟...
أين ما كنتَ تتشدق بهِ من حَمِيَّةٍ وطنيةٍ ؟...

— إن وطنيَّتِي لم تخمُدْ ، وستظَلُّ متَّقِدَةً ما حَيِيتُ .

— إنها وطنية كلام ، ليس من ورائها جَدْوَى .

— المنهجُ الذى أرتسِمُه يتنزَّه عن المظهرِ البرَّاقِ .

فقالتْ فى لهجةٍ ساخرةٍ :

أتُرَاكَ تُضْمِرُ « ثورَةً » فى طَىِّ الكِتْمَانِ لا تبُوحُ بِسرِّها لأحَدٍ .

— وما انتفاعُنا « بالثورةِ » فى الوقتِ الحاضرِ . وأينَ همُ الذينَ يستطيعونَ إضرامَ نارِها ، والنفخَ فى رُوحِها ، والبَلَدُ مسلوبُ الحوْلِ والطَّوْلِ ، محكومٌ بالحديدِ والنارِ ، وأهلُه — إلا أقلَّهم — فى غفْلَةٍ ساهُونَ ... لمَ يحِنْ وقتُ إعلانِ الثورة بعدُ . أكبرُ ما فى مقدورِنا أن نعمَلَه « اليومَ » هو أنْ نمهدَ لهذِهِ الثوْرةِ ، أن نبشِّر بها ، أن نغرسَ نواتَها فى الصُّدُورِ .

— وكيفَ يكونُ ذلك ؟...

ـــ نُبَصِّرُ المواطِنينَ بحـالِهِم ، ونوقظُ وَعْيَهمْ ، ونَسْتَثِيرُ هِمَمَهُمْ ، ونعرِّفُهُمْ بحُقُوقِهِمُ المهضومَةِ ، وماهو ملقَى على عواتِقِهِمْ من فروضٍ وواجباتٍ ... دونَكِ مشغَلنـا العَتيدَ ، أسوقُه إليـكِ مثلاً . إنَّهُ مظهرٌ من مظاهرِ هذا النَّشاَطِ الوَطَنِيِّ ، فِيهِ تـكتسبُ عاملاتُه فن الحياكة ، وكـذلك نلقنُهنَّ درساً فى الأمانِيِّ القوميَّةِ . نُعِدُّهُنَّ ليـكُنَّ مواطناتٍ رَشِيدَاتٍ ، وأُمهاتٍ لجيـلٍ جديدٍ يعرفُ تبعاتِهِ نحو بلدِهِ حقَّ المعرِفةِ ، ويقَدِّرُها خيرَ التقديرِ .

فأطرقتْ تقولُ فى نَبْرَةٍ مُتَحَدِّيةٍ :

يا لَهُ من نشاطٍ محدودٍ ضئيلٍ !... وهلْ يكونُ لمثلِ هذَا المَجْهودِ التَّافِهِ فى حياةِ الأُمَّةِ أثرٌ مذكورٌ ؟...

ـــ لو نهضَ كلُّ رائدٍ من رُوَّادِ الأمـةِ بمثلِ ما نَنْهَضُ بِهِ ، لأصابَ وطنُنَاَ أهدافاً بعيدةَ المَدَى .

فرمتنِى بنظرةٍ من نَظَراتِها الثَّاقِبةِ ، وقالَتْ :

وأينَ مكانُ الانتقامِ ، ومتَى الأخذُ بالثَّأرِ ، متَى ؟؟...

— لا طاقةَ لنا بالانتقامِ اليومَ ... سنظلُ إلى حينٍ مَوْتُورِينَ ... إننا نعملَ للغَدِ المنشودِ ... ولن يطولَ بنَا أَمدُ الترقبِ والانتظارِ .

ثالتْ فى لهجةٍ ، هى مِزَاجٌ من إشفاقٍ وتهَكُّم :

• هذا كلامٌ يصدُر عن شيوخٍ محافظينَ ذوى خَشْيَةٍ ومُحَاذَرَةٍ ، لا عنْ شَبَابٍ متوثِّبٍ جرىءٍ يفيضُ بالتحَمُّسِ ، ولا يرهَبُ خوْضَ المغَامَرَاتِ والأخْطَارِ .

فرنوتُ إليها فى إخلاصِ محبٍّ وَلهَانَ ، وهَمْهَمْتُ :

من أجلكِ يا «أشجانُ» آمنتُ برزانَةِ الشُّيوخِ وتعقُّل المحافظينَ ... من أَجلكِ آثرتُ الخشْيَةَ والمحاذَرَةَ .

— من أَجلِى أَنَا ؟...

— نَعَمْ يا «أَشْجَانُ» ... أَلا تدرِكِينَ ؟... إنْ «الثَّأرَ»

عنفٌ وتهوُّرٌ يعرِّضانِ حياتَكِ لخطرٍ محقَّقٍ ، ولنْ نكسبَ مِنْ ورائِه شيئاً ... وأَنا اليومَ أَحرَصُ ما أَكونُ على سَلامَتِكِ ... حياتُكِ هي حياتِي ، بل هي أَعزُّ عندِي من حياتى ... لن أَدعَكِ تتعرَّضين لمكْرُوهٍ !...

وانحَنَيْتُ عليها أَطبع على جبينِهَا قبلَةً عميقةً ، حافلةً بأَكرم معانى الوَفاءِ والإعْزَازِ !...

٢٥

حَسْبِ المرءِ منا أن يَعْرُوَه من الأمر ما يُبدِّلُ بيئته وملابِساتِ حياتِه ، وما يَحِيقُ بهِ من بواعِثَ وموجِّهاتٍ ، لكيْ تَرَاهُ قد تبَدَّى فى صورةٍ أُخرى ، لا تكادُ تمُت بصلةٍ إلى الصورةِ الأُولَى .

لشَدَّ ما تغَيَّرَ كلُّ شيء حوْلِي ...

ما أكبرَ ما لحِقَنِي من تَطَوُّرٍ ...

بل لشدَّ ما تبدلتْ « صاحبَتِي » خَلْقاً آخرَ ، ودَخَلَتْ فِي طَوْرٍ جديدٍ ، ليسَ فيهِ من المَاضِي إلاَّ ظِلاَلٌ رقيقَةٌ ضِئَالٌ .

أينَ اليوم من الأمسِ ؟...

أينَ « أشجانُ » الآنَ من « بهيةَ » ومِنْ « نَوَاعِمَ » اللّتَيْنِ عَفّتْ عليهما أحداثُ الزمانِ ؟...

بَوْنٌ شاسعٌ بينَ شعورِي نحوَها فى أمْسِيَ الدابرِ ، وشعورِي نحوَها فى يومِيَ الحاضِرِ !...

إن ذلكَ الاشتهاءَ النشوانَ ، الذِى كان يُلْهِبُ مشاعِرِى كلّماَ دنَوْتُ منها أو نأيْتُ عنها ، والذِى كان يجعلُ مِنِّى حيوانًا عِرْبِيدًا فى إهابِ إنسانٍ ، لا أجدُ له فى نفسِىَ الساعةَ إلاّ ما يُشْبِهُ الصدَى البعيدَ ... لقد أَخْلَى مكانَهُ من جوَانِحِي لعاطفةٍ نبيلةٍ هادئةٍ ، ملؤُها تآلفٌ وتعاطُفٌ وصفاءٌ .

أنا الذِى كنتُ خليلاً لتلكَ الغانيةِ فيما سَلَف ، صِرْتُ فى يومِى هذَا خاطِبًا لهاَ أُعِدُّ معَها عُشّ الزوجيةِ لغدٍ قريبٍ .

لم أعدْ ذلكَ الشابَّ ، الفـــارغَ القلبِ من شواغِل العيشِ ، يقضِى عَامَّةَ نَهـارِهِ وهزيعِ ليلهِ على حواشِى المشـــاربِ ، يُثَرْثِرُ ويلْقِي بالـكَلامِ جُزَافاً دُونَ تَرَوٍّ أو تعَقُّلٍ . ثم تلعبُ بهِ تَهْوِيمَاتٌ يُشَيِّدُ بهَا قصوراً على متنِ الهَوَاءِ .

لقد رسمْتُ لنفسِى خُطَّةً ، ونصبْتُ لحياتِى هدَفاً . وهأنَذَا جادٌّ كُلَّ الجدِّ فى إنفاذِ تلكَ الخُطَّةِ وإصابةِ هذا الهدفِ بكلِّ ما أُوتيتُ من عَزْمٍ وحَزْمٍ .

إن « مشغلَ وفيقٍ للحياكةِ والتفصيلِ » لن يكونَ إلا نُقطـةَ بدايةٍ وخطَّ انطـــلاقٍ ، حولَه تتجمَّعُ الأمَانِيُّ الجِسَامُ .

لن يظلَّ هـذا المشغلُ متوحِّداً يعمَـلُ فى دائرةٍ ضيقةٍ . . إنِّى لأتمثَّلُه خَلِيَّةً عامرةً تـكتنِزُ فيها الشُّحُنَاتُ

الضَّخْمَةُ من الحيويَّةِ والنشاطِ ، وسُرعانَ ما تتكاثرُ حولَها خلايا جديدةٌ ، لكلٍّ منها طابَعٌ تتميزُ به ، ووظيفةٌ تنهَضُ بها ، ولا غرضَ لهذه الخلايا إلا خيرُ المجتمع ونفعُ الوطن .

ستتخَلَّق من هذا المَشغَل بلا ريب مؤسَّساتٌ لفروعٍ شتَّى من الصِّناعات ، وفى هذا الحقل الخصيبِ نستطيعُ نحن « الرُّوَّاد » أن نعملَ على إعدادِ نَشْءٍ جديدٍ مُشبَعٍ بروحٍ قويةٍ ، وإيمانٍ عميقٍ .

على هذا الضوْءِ سلكتُ سبيلى مع « صاحبتى » الحبيبةِ ، ولم يمضِ مديدُ وقتٍ حتى أضحى المشغلُ حقيقةً واقعةً ، يتهيأُ لاستقبالِ رائداتِهِ فى موعدٍ وشيكٍ .

ووزعنا « النَّشُراتِ » الضافيةَ ، محلاةً بالصُّوَرِ على سكان الحىِّ وغيره من الأحياءِ المجاورةِ له ،

فأقبل علينا الأهلونَ يتساءلون ويتعرّفون ، وما لبثوا أن توجّهُوا برغَبَاتِهِمْ إلينا أن نسجّلَ أسماء بناتِهِم في سِجِلٍّ طَالِبَاتِ الالتحاق .

٢٦

ويوماً كنتُ و « أشجانُ » في الحديقةِ ننسِّقُ أُصُص الرَّيَاحينِ ، فقصَدْنَا بعْدَ لأْيٍ إلى دَكَّةٍ من خشب ، وجلسْنا عليها نستريحُ .

وأظَلَّتْنَا غاشِيَةٌ من صَمْتٍ ، وانصرفْتُ أُفكِّرُ دُونَ ما قصْدٍ في يومِ الافتتاح متى يكونُ ، ولم نكنْ قد ضربْنا له مَوْعِداً بعدُ ...

وترسلُ على سمعي صوتَها وهي تُهَمْهِم :

ألا ترى أنَّ عيدَ ميلادِ « وفيقٍ » أو على الأصَحِّ « ذكرى ميلادِه » أولى المناسَباتِ لحفْلِ الافتتاحِ ؟... يومُ الذِّكرَى بعدَ أُسبُوعَيْن .

فرنوتُ إليها أتأمَّلها في دَهْشةٍ حَيْرَى ، وقــد راعَنِي توارُدُ خاطرِي وخاطرِها في هذا الشَّأْن .

ثم خفَضتُ من بصرى وقلت :

عظيم ... هذا يومٌ تاريخيٌّ في حياةِ الأسرة ... اختيارٌ موفَّق كلَّ التوفيقِ :

وعكفنا نعملُ في جِدٍّ على استكمالِ مُعداتِ المشغل ، وعُنِينا أيَّما عنايةٍ ببِرْنامَجِ « حفلِ الافتتاح » ، وانتهَى رأيُنا إلى أن يكون بَرْنامَجاً طريفاً ، أكثرُه موسيقى وأناشيدُ وألعابٌ ، وأقلُّه كلام ؟...

وبَكْرةً أقبلتْ عليَّ « أشجانُ » مهتاجةً ، وبيدها ورقةٌ تبيَّنْتُ فيها أبياتاً من الشعر .:. وعلي الفورِ شرَعَتْ تقرأ ، مرفوعةَ الهامةِ ، جَهِيرَةَ الصوتِ :

يا بلادى . يا بلادى لكِ حبي وفؤادى
أنا أفديكِ بروحى وبعزمِى . وجهــادى

مصر يا قُرَّةَ عيني أنتِ في الدنيا مرادي
نيلُكِ الصافي : حرامٌ أن يُخَلَّى للأعادي
نحنُ أحرارٌ كِرامٌ مجدُنا في الدهرِ بادِ

فقلت وقد أثار الشعر حميتى :

قطعة رائعةٌ ، وقد أحسَنْتِ إلقاءها .

فأجابتْنى ، وهي تمسحُ العرقَ عن جبينِها :

سأجعَلُها نشيدَ الاِحتفالِ ...!

— رأىٌ سديدٌ ، وأينَ أصبتِ هذه الأبياتِ ؟...

— فى أوراقِ أبي ... لا أدرِى مَنْ قائلها .

وما أسرعَ أنِ استأْجرْنا « بِيانًا » لعزفِ الألحانِ ، وألحقْنا بالمشغل أحد العازفِينَ الموسيقيين .

وشرعنا نمرِّنُ الصَّبَاياَ على الإنْشَادِ وندرِّبهُن على الألعاب .

وكان يلذ « لأشجانَ » أن تجمعَ صباياها تحت صورةِ « وفيقٍ » فى القاعة الكبرى ، وتشركهن فى اللعب والإنشادِ ، مُسْبِغةً عليهن العَطفَ والحَنانَ ، ثم لا تدعُهُنَّ حتي توزعَ عليهن قراطيسَ الحَلْوَى كما كانَ يصنَع أبوها مع ضيوفِ « وفيق » ...!

وتوثَّقَتْ بين « أشجانَ » وهؤلاء الصبايا عُرَا أُلْفَةٍ عميقةٍ ، وَوُدٌّ موصول ، وأصبح المشغل روضةً أنيسةً لهن ينعَمْنَ فيها بوقتٍ هانئٍ حبيب .

ومضينا نُوَزِّعُ بطاقاتِ الدعوةِ على أهل الحى .

٢٧

حانَ يومُ الافتتاح ...

فبكَّرتُ إلى « المشغل » ، وما إن وطئت قدماى القاعةَ الكبرى ، مثابةَ الاحتفال ، حتى فجأنى مرأى « الرايةِ المصريةِ الوطنيةِ » ، شعار الاستقلالِ ، مرفوعةً فى صدرِ القاعةِ تظلِّلِ صورةَ الطفلِ الفقيدِ ، وبانَ لى أنها هى الرايةُ التى كانَ « وفيق » يحملها يومَ مصرعهِ ، فقد بدت مخضَّبَةً بالدَّمِ ، لا تخلو ديباجتُها من تمزيق .

وتراءتْ « أشجانُ » على باب القاعة ، فهُرِعْت إليها أقول :

ليسَ من الحكمةِ ، يا صاحبتِى ، أن تظهرَ هذهِ الرايةُ

على أعيُنِ الحاضرين .

فقالت فى اعتدَادٍ وثَباتٍ :

لِمَ ؟...

— قد تُثيرُ هذه الرايةُ مشكلةً نحن فى غِنىً عنها .

فأجابتْ وهى على حالها لم تتغير :

أيّةُ مُشكلةٍ ؟...

— لا تنسَىْ أننا نحيا فى جوٍّ مُكَهْرَبٍ ... قد يتسامعُ أصحابُ « السلطةِ » بنبأِ هذه الرايةِ ، فيَعُدُّون ذَلِكِ إثارةً للشعورِ الوطنىِّ ضدَّ الغاصبين المحتَلِّين .

— لا أُبالِى ... حسبِى أن تُرَفْرِفَ هـــذِهِ الرايةُ على ولَدِىَ الفقيدِ ، وهو صورةٌ ليس بهـا من حَرَاكٍ ، كما رفرفَتْ عليه من قبلُ ، وهو حىٌّ يتنفَّسُ ... إن الرايةَ تزدَانُ بقَطَراتٍ من دَمِـه الزَّكىِّ ، وهى كل ما تركه لِى من جَسَدِهِ الحبيبِ ...!

ومَثَلَتْ حِيَالَ «الصورة» تتطلَّعُ إليها فى نَشْوَةٍ ، والرَّايَةُ من فوْقِ الصورةِ تخفُق ...

وطَفِقَ الزُّوَّارُ يتوافَدُون جماعاتٍ وفُرَادَى ، حتى زخَرتْ بهم القاعةُ عَلَى رَحْبِها .

وبدأْنَا البَرْنَامَجَ ...

وكانَ الاِستهلالُ آياتٍ من الذِّكْرِ الحكيم ، تلاها قَارِئٌ مُجيد .

ثم تجلَّت الصبايَا على المَنَصّة رافِلاتٍ فى أرْدِيَتِهِنّ الزاهيةِ ، فاستقبلهُن الجمهورُ بترْحَابٍ . ولما أنشْدنَ نشيد الاِحتفال كانَ التصفيقُ والهُتَافُ على أَشُدِّه يتخلَّلُ مقاطِعَ الإِنشاد .

ووقفتُ ألقى كلمةً قصيرةً أحَيِّى فيها الحاضرِين وأشرحُ لهم أهدافَ المشغَلِ

وعلى أثرِى نهضتْ جُوقَةُ الراقِصَاتِ من عامـلاتِ المشغل الناشـئاتِ ، فعرَضْنَ رقصةً إيقاعيَّةً طريفةً ، ظفِرتْ من الجمهور بالإعجاب .

وتَبِـعَ ذلكَ بعضُ مشاهدَ تمثيليةٍ غنائيةٍ ، تُراسِلُها أنغامُ « البيَانِ » .

وسَرَتْ إلى أسماع السَّابلةِ فى أرجاء الحىِّ ألحانُ الموسـيقَى ، وأنغامُ الأناشيدِ ، واجتذَب أنظارَهم تألقُ الأضواء ، فتهافتُوا على الباب يُمدُّونَ الأعْـيُنَ ويُنصتون .

واستطاعَ بعضُ الشـبانِ أن يتسلَّلُوا إلى مَثَابَةِ الاحتفالِ وهم يتدافعُونَ بالمناكِب ، فمِلْتُ على « أشجانَ » أقولُ :

لِزَامٌ علينا أنْ نَفْرِضَ رَقابَةً صارمةً على البابِ ، خشيةَ أن يشيعَ فى الحفلِ هَرْجٌ واختِلاَل .

فأجابتنى على الفور :

إنى أحتفل بذكرَى ولَدِى ، وليس الاحتفالُ بذكرَاهُ إلا تمجيداً لحادثِ مَصْرَعِه ، ذلك الحادثِ الوطنىِّ الذى يَهمُّ الناسَ أجمعين ... لن أمنعَ كائناً كَانَ أن يشارِكَ فى هذا الحفلِ بنصيب ...!

وألفيتُها تملأُ عينيْها من صورة ولَدِها ، وسُرعانَ ما تسامَتْ إلى المَنَصَّةِ فى اهتياجٍ ، وإذا هى تخاطبُ المَلأَ فتقُصُّ ، فى صوتٍ متهدِّجٍ ، كيف كان مصرعُ الطفلِ الفقيدِ ، على حين تشير إلى الصورةِ ، والرايةُ من فوقِها تنسَدِلُ .

وكان فيما قالت :

إنكم لتحتَفِلُونَ مَعِى بتلكَ الذكرَى العزيزةِ ، ذكرَى ولدِى « وفيقٍ » ... لقد اغتالَه الأوْغادُ ... قد وقعَ بين أيديهِمْ كما يقعُ العصفور الغِرِّيدُ الأَنِيسُ بين براثنِ وحْشٍ مُفتَرِس ... لم يكن هذا العصفورُ الوديعُ يحملُ

سلاحَ حربٍ وضَرْبٍ ، بل كان يحملُ رايةَ الوطنِ ، شارةَ الاستقلالِ ، وها هي ذى مرفوعةٌ أمامَكم تظلِّلُ صورةَ الطفلِ الشهيدِ ، صريعِ الغدْرِ والبغْيِ والعدوان ... إن رايةَ الاستقلالِ هذه تحملُ قطَراتٍ من دمه الطاهرِ البرىءِ ، ولكأنىٌّ بها تناديكم أن تُلبُّوا دعوةَ الوطن ، وأن تبذلوا دماءكمْ فِداءً للحريةِ ...!

وأسرعَ إلى المَنَصَّةِ شابٌ متحمِّسٌ جرىءٌ ، وصاح فى صوتٍ جَهْوَرِى :

إن ذكرَى هذا الصغيرِ الشهيد لهِى ذكرَى وطنيةٌ خالدة ... لم يمت « وفيقٌ » إنه حىٌّ معنـا ... والموتُ للطُّغَاةِ السفَّاحين ... فليحىَ الوطَن ، ولتحىَ ذكرَى « وفيق » ...!

وعلت فى هذا الوقت أنغام « البيَـانِ » ، وانطلقتْ الصباياَ ، وعلى رأسِهنَّ « أشجان » يُنَشِدْنَ :

يا بلادِى يا بلادِى لك حبى وفؤادى
أنا أفديكِ بروحى وبعزْمى وجهادِى...

وحَمِىَ التَّصْفيقُ...

واستُعِيدَ النشيدُ مراتٍ ، والحاضرون يشاركون الصَّبَاياَ فى إنشادِه .

وتجاوَبَتْ فى القاعةِ هتَافاتٌ وطنيةٌ عِدَائيةٌ ، تصب اللَّعَنَاتِ عَلَى من يسفِكون دماءَ الأبرِياء ...

وتأجَّجَ الحَماسُ ، واشتدَّتِ الفَوْرَةُ ...

ثم تناهتْ إلينا من خارج القاعَة جلبَةٌ وتصايُحٌ ...

وانطلقَتِ القذائفُ مُدَوِّيَةً ...

وعلمنا أن دَوْرِيةً من الجُنْدِ البريطانيينَ ، قد تسامَعَتْ بنبإِ الحفلِ وما يجرِى فيه ، فخفتْ إليه تَفُضَّه ...

وعمَّ الهرْجُ والمرْجُ مَنْ فى القاعة ...

وامتدتْ يدُ « أشجانَ » إلى الرايةِ المخضَّبة بدمِ ولدِها الشهيد ، فانتزعَتْها وتلفعَّتْ بهـا ، ثم مَثَلَتْ على المَنَصَّة تهتِف بحياةِ الوطن ، وتحُثُّ الأهْلِينَ على الجِهاد ...

فتجمَّعَ حولَها لفيفٌ من الشبانِ ، وأخذُوا يردِّدون النّداءاتِ الحماسيةَ ، فى أصواتٍ محمُومَةٍ ...

وتـكاثَرَ الجمعُ حولَ « أشجانَ » ...

وإذا هي محمولَةٌ على الأَكْتافِ ...

وإذا الجمْعُ يخرجُونَ بهـا إلى الحديقة ، وأنا منَهُمْ ، يحدُونِى باعثٌ ، لا طاقَةَ لى بدَفْعِهِ ...

وتتابعتِ الأحداثُ فى سُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ ...

وألفيتُنِى أرفعُ عقيرَتى بالهُتاف ، أُجارى القومَ فى تصايُحِهِمْ ، دونَ خشيةٍ ...

واشتَدَّ إطلاقُ النارِ ...



وإذا هي محمولة على الأعناق ... والراية بدم ولدها تظللها ...
واشتد إطلاق النار ... وإذا هي تترنح !...

وأحسَسْتُ قوةً عارمةً تسوقُني إلى « أشجانَ » ،
ومناكبُ الجمع تمايَلُ بهـا يَمْنَةً ويَسْرَةً ، والقذائف
حولَنا تقصِف ...

ولمحتُها تضَعُ يدَها على صدرِها وتترنَّحُ ...!

وما هى إلاَّ أنْ تهـاوَتْ ، والرايَةُ على جَسدِها
تنبَسِط ، ففزِعتُ إليها أتلقَّاها بين ذراعَيَّ ...

وأهوَيْتُ على جَسَدِها أتحسَّسُه ، وقد شقَّت حلقِي
صيحةُ هلَعٍ ، وأنا أُنَاشِدُها أن تخبرَني ماذا دهَاهَا ، فما راعنى
ن بينِ جوانِحِها ، ممتزِجاً بدم ولدها
: الرايةِ الحمْراءِ ، رايةِ الوطن ...!

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٨٩٦٧
I.S.B.N 977 - 01 - 6191 - 8



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهي إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر في تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل. للشاب. للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وإني لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع 1999
مهرجان القراءة للجميع
للطفل . للشاب . للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة
١٢٥ قرشاً